

د. عبد الله محمد الغذامي

رحلة إلى جمهورية النظرية

مقاربات لقراءة وجه أمريكا الثقافي

رحلة إلى
جمهورية النظرية

رحلة إلى جمهورية النظرية

الناشر: مركز الإنماء الحضاري - حلب

الطبعة الثانية: 1998

التنضيد: دار الشجرة للخدمات الطباعية

دمشق - مخيم اليرموك - هاتف 6320775

التصميم والإخراج الفني: منال وليد غنيم

تصميم الغلاف:

رأفت السباعي



رحلة إلى جمهورية النظرية

مقاربات لقراءة وجه أمريكا الثقافي

تأليف

د. عبد الله محمد الغذّامي



مقدمـــة

(أ)

كلما شبر اختلف عدده

يحكي القزويني في آثاره (ص369) حكاية عن (دير الجودي)، وهو دير مبني على قمة جبل الجودي وهو الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، ويقال إن هذا الدير مبني منذ زمن نوح ولم تتجدد عمارته، ويذكر القزويني كلاماً عن سطح هذا الدير فيقول (زعموا أن سطحه يشبر فيكون عشرين شبراً مثلاً. ثم يشبر فيكون اثنين وعشرين، ثم يشبر فيكون ثمانية عشر، فكلما شبر اختلف عدده).

تلك كانت صفة سطح الدير، وتلك هي حال مقارباتي هذه عن أمريكا، وما محاولة شبر سطح الدير إلا ضرب من القراءة، وكل قراءة لنص أو لظاهرة بشرية أو كونية لا بد لها من مواجهة مأزق يماثل مأزق تشبير سطح الدير، فالمقروء يزيد وينقص ويتبدل مع تكرار القراءة. ولا شك أن الانتقال من التصور العيني إلى التصور الذهني ثم التمثل اللغوي هو تنقل نوعي تتغير فيه الصور وتزداد المسافة ما بين الشيء كوجود عيني وما بين الشيء كعبارة لغوية ـ وهي مسألة يعرفها السميولوجيون

القدامى والمحدثون بدءاً من أبي حامد الغزالي إلى امبرتو إيكو (الخطيئة والتكفير ص45).

وأمريكا بصورتها الواقعية العينية شيء مختلف عنها في صورتها الذهنية في ذاكرة المتصور لها، وهاتان الصورتان تختلفان عما يسكن في النص اللغوي كتعبير وتمثل لما هو قار في الذهن.

وها أنذا بعد كتابة ست وثلاثين مقالة عن أمريكا، أشعر بحاجة إلى كتابة ست وثلاثين أخرى أقول فيها غير ما قلت، وأزيد فيها وأنقص منها مثل حال سطح الدير وشابريه. فاللغة البشرية لم تبلغ الحد الذي به يتطابق التعبير مع الصورة الذهنية، هذا عيب في اللغة لازم نشأتها وصاحب وجودها حتى صار ميزة في الخطاب اللغوي، ظهر منها الخطاب الأدبي والتعبير المجازي، وسمح بولادة الخيال وتنامي الشعرية والسردية في لغة البشر.

(ب)

في عام 1971م ذهبت إلى بريطانيا للدراسة، وكنت قبل ذهابي من مدمني الاستماع إلى إذاعة لندن ومن مدمني القراءة في كتب الرحلات والجغرافية، وهذا جعلني أعتقد جازماً أنني أعرف الإنجليز معرفة أكيدة. وبعد مرور شهر على إقامتي هناك أدركت أن معرفتي السابقة غير صحيحة، وأنني الآن عرفت الإنجليز بعد أن شاهدتهم وحادثتهم.

ولكنني بعد ستة أشهر أخذت مرة أخرى أخطئ نفسي وأصحح مفهومي عن الشعب الإنجليزي.

ثم انضممت إلى الجامعة بعد أن قضيت سنة في دراسة اللغة والسكنى مع عائلات إنجليزية. وهناك في الجامعة ـ ومع الاختلاط بالطلاب ـ رحت أمسح الصورة السابقة وأضع بدلاً منها صورة أخرى أحسست أنها أصدق وأدق حول معرفتي بالإنجليز. وظننت أنني قد وصلت أخيراً إلى إدراك حقيقة ذلك الشعب، غير أن السنوات كانت تتوالى علي في بريطانيا لتواصل التعديل والتبديل في صورة الإنجليز في ذهني، ويتأكد لي مع كل تعديل أن التصور السابق لم يكن صحيحاً.

وفي عام 1978م توجهت إلى مطار هيثرو حاملاً كتبي وأوراقي لأعود

إلى بلادي وفي رأسي حكمة راسخة وهي أنني سأظل أعدل من تصوراتي، وأن الشعوب مثل سطح دير جبل الجودي كلما شبروه اختلف.

لهذا فإن القراءة ليست سوى مقاربة تشريحية تهدف إلى سبر أغوار المقروء واستكشاف بواطنه دون أن تدعي لنفسها وصول غاية لن تصل إليها. إذ كلما شبرنا المقروء وكلما سبرناه اختلف.

لقد كانت الثقافة الشفاهية أقرب إلى واقع الأشياء حيث كان المبدع الشفاهي يغير نصه ويعدله في كل مرة يروي فيها القصيدة أو الحكاية، نص متغير عن واقع متغير.

أما الآن فالمكتوب ثابت والواقع متغير، وهذا فراغ إبداعي رهيب تواجهه اللغة وتواجهه الثقافات. (وكلما شبروه اختلف). وهل بإمكان أحد اليوم أن يكتب تاريخاً للبشر؟

لقد ارتبطت الأحداث بالتغير لا الثبات، وما كتبه ابن الأثير في كتابه (الكامل) عن أحداث سبعة قرون من تاريخنا يعادله اليوم أحداث سنة واحدة. والذاكرة التي كانت تعي وتستوعب كل هاتيك القرون لم تعد اليوم بقادرة على استيعاب ما يتلاحق من متغيرات ينسي بعضها بعضا، حتى لقد ارتبط الفكر البشري بنشرات الأخبار وما حدث قبل عام صار نسيا منسياً، وصار زمناً قديماً.

لا وجه للمؤرخ ولا للتاريخ، انقرض فن التاريخ. وحل محله إعلام شره سريع مهووس. وصار المرئي بدل المقروء والشاشة بدل الكتاب.

هذه هي الثقافة البصرية أو ملحمة العين، كما يقول دي سيرتو حيث يتحرك النص حركة دائبة أمام بشر ثابتين. وهذه هي حال كل عائلة معاصرة، يركنون ساكنين في كراسيهم ويتحرك العالم ـ وحده ـ على شاشة التلفاز من أمامهم، قارئ ثابت أمام نص متحرك، وكلما شبروه اختلف.

(جـ)

تأتي أمريكا على أنها فكرة وليست مجرد مكان، ولقد كانت حلما بشرياً قديماً، وكلنا قد قرأ أحلام الرحالة والجغرافيين عن جزر ضائعة،

وعن جزر تنبت فيها النساء، ويتقاطر سيلها ذهباً وياقوتاً.

وها هي أمريكا جزيرة كانت ضائعة، فهي حلم بشري وهي (نظرية) في الثراء والحرية والخلاص.

هي مصطلح لغوي مجازي، وهي خيال بهيج، كلما شبروه اختلف وكلما اقتربوا منه ابتعد. ويظل الحلم الأمريكي (American dream) مطلباً بشرياً طلبه المهاجرون الأوائل، ومازال يطلبه الناخبون المعاصرون في حملات رؤسائهم وفي وعودهم البيضاء.

جاءت أمريكا في آخر التاريخ وفي آخر معاجم اللغات والحضارات، فصارت أغض الأمم وأشب الإمبراطوريات. مثلما جاء مكانها آخر الأماكن، وهو موقع جغرافي أعطاها فرصة عالمية لأن تكون آخر من ينام من البشر. وبعد أن تهجع كل قارات العالم يأتي دور أمريكا لتنام قريرة العين حيث اطمأنت على العالم القديم وتأكدت أنه هاجع في نومة عميقة كما تطمئن الأم على أطفالها أو يطمئن الفتى البار على جدته العجوز.

وهذا لا يعني أن أمريكا قد صارت الابن البار والبنت الصالحة التي لا تقصر في حقوق والديها، بل إنها كيان بشري مثل سواه من البشر، ولكل أمة من الأمم جنونها تماماً مثل الأفراد ولها هوسها ووساوسها ومراهقتها. غير أن جنون أمريكا ومراهقتها يأخذان صورة مختلفة لأنها تملك لغة مختلفة ووجهاً مختلفاً، له من القوة والسلطان ما يجعله وجهاً عالمياً ولغة عالمية. ولذا فإنه كلما جنّت أمريكا جنّ معها العالم وكأنها بذلك خاتمة لرواية من روايات أجاثا كريستي حيث تعدل النهاية كل أحداث الرواية وتجرها وراءها وإن تقدمت عليها.

هذه هي أمريكا خاتمة الرواية العالمية وآخر المواقع الجغرافية، وحينما تكون هي غرباً يكون العالم كله شرقاً لها، وكله يصب فيها وينحدر نحوها مثل انحدار الشمس الأبدي نحو الغرب.

لذا تكون قراءتنا لأمريكا هي قراءة لنا من حيث إننا نرى أنفسنا في هذا الآخر ونقيس ذاتنا من خلال التعرف على آخر ليس لنا ولكنه فينا ومن حولنا.

(د)

أود أخيراً أن أسجل شكري للدكتور نبيل خوري الملحق الثقافي

الأمريكي في الرياض (سابقاً) الذي كان وراء رحلتي هذه، وأشكر وكالة الإعلام الأمريكية التي مولت زيارتي إلى الولايات المتحدة. وأذكر بالتقدير الشديد المستر سي باتريك كوينلان ـ أو أبو أحمد كما اتفقنا على هذه الكنية ـ الذي رافقني لمدة ثلاثين يوماً عبر تسع ولايات، وكان لثقافته الواسعة وخبرته الطويلة كسفير لبلاده في الشرق الأوسط كان له ولخبرته فضل كبير عليّ إذ عرفت منه أشياء دقيقة عن حياة الناس والمجتمع في أميركا، وكانت رحابة صدره ورجاحة تفكيره سبباً رئيسيا في استمتاعي بهذه الزيارة.

وأشكر الصديقين جاسر الجاسر وعلي العميم اللذين حرضاني على الكتابة عن زيارتي هذه، ولقد ترددت كثيرا وكدت أصرف النظر كليا عن فكرة الكتابة لولا تحريضهما المستمر ولولا المتابعة المخلصة والاهتمام الكبير من الأخ علي العميم ـ المحرر في جريدة الشرق الأوسط ـ مكتب الرياض.

وأشكر جريدة الشرق الأوسط على نشرها مقالاتي هذه على سبع وثلاثين حلقة، وأقدر للصديق الدكتور محيي الدين اللاذقاني ـ المشرف على الثقافة في الجريدة ـ عنايته الخاصة بمقالاتي هذه.

أما وقد فرغت من كتابة هذه المقالات (المقاربات) فإنني أشعر أني قد استمتعت بكتابتها ومعايشتها لحظة بلحظة، وأرجو أن أكون قد وفقت في تقديم متعة قرائية لقارئي مقارباتي هذه.

وتكتمل صورة الشكر والامتنان مع الصديق الأستاذ عبد المحسن عبد العزيز العكاس العضو المنتدب في الشركة السعودية للأبحاث والتسويق الذي تبنى مشروع نشر هذه المقاربات في كتاب، فله مني خالص الامتنان والتقدير.

والحمد لله أولاً وآخراً ...

عبد الله محمد الغذامي
الرياض ٢٨ /٤/ ١٩٩٤.

1

غرب
الغرب

1-1 «إن الحكمة الإلهية جعلت السلطة الكونية، التي كانت في بداية الدنيا في المشرق، تنتقل شيئاً فشيئاً نحو الغرب لتنذرنا باقتراب أجل العالم، لأن مجرى الأحداث قد وصل إلى حدود الكون».

هكذا يستنطق أمبرتو إيكو أحد شخوص روايته (اسم الوردة ص50) وكأنه يعلن عن خوفه من الغرب، حيث يكون الغرب علامة على النهاية ونذيراً بالأجل.

لقد ظهرت رواية ايكو عام 1980م بإيطاليا ثم أخذت الرواية طريقها باتجاه الغرب في ترجمات أدبية، وفي شريط سينمائي. لقد كانت تحاكي مسيرة الشمس مثلها مثل السلطة الكونية، ومثلها مثل رحلة الظعائن الجاهلية في مسارها الكوني من الشرق إلى الغرب (حسب دعوى أحمد كمال زكي في كتابه الأساطير).

وبعد عشر سنوات من تفوه شخصية ايكو بذلك الكلام عن مصير العالم بعد أن تولى الغرب زمام السلطة، بعد عشر سنوات من ذلك التحسس جاءنا جورج بوش معلناً عن (النظام العالمي الجديد). حيث تتسلم أمريكا قيادة العالم، بعد انهيار آخر ممالك الشرق (الاتحاد

السوفييتي) مما جعل آخر بقعة في غربي الكرة الأرضية تمتلك الكون.

وهكذا يصبح العالم في يد الغرب الخالص في يد غرب الغرب، ويتراجع الشرق ليكون مجرد كينونات جغرافية متشظية سياسيا واجتماعيا وثقافياً. وتكون القوة الوحيدة والقدرة الوحيدة هي غرب الغرب.

وتحل اللغة الأمريكية في صدارة كل اللغات، حيث صارت لغات العالم على الشرق من أمريكا، بما في ذلك اللغة الإنجليزية التي صارت هي الأخرى لغة شرقية تابعة ـ ثانوية ـ منصاعة لسيدة العالم بنظامه الجديد، حيث المصطلح المتضمن ليس القوة والسلطة ـ فحسب ـ ولكن أيضاً هو المصطلح المتفرد والمتنفذ الذي يريد فيتبعه العالم، وإذا لم يرد فلا شيء يصير خارج إرادة السيد.

نعم.. لقد أصبح العالم كله شرقا وأمريكا وحدها هي الغرب والسلطة الكونية تنتقل حسب قاعدة التحول الأزلي من شرق إلى غرب، ويكون النظام الجديد هو أبانا الذي..

1-2 قبل خمسمائة عام (1492) راح البحار الإسباني تاركا الشرق خلف ظهره في نية البحث عن شرق الشرق (عن الهند) فكان حظه أكبر من حلمه فاكتشف غرب الغرب، وجدها.. وجد أمريكا. لأنه سار مثل الشمس ومثل السلطة. فوجدها.

لقد فتح الطريق للسلطة الكونية فأنقذها من ورطتها مع نفسها حينما ضاقت بها بقعتها الأوروبية، وبدأت عمليات تفريغ السفينة الأوروبية والتخفيف من شحنتها المكتظة، وصارت أوروبا تصب زوائدها وجياعها وحالميها وطلاب الذهب والحرية والخلاص.

تصبهم هناك حيث الحلم الأمريكي وحيث غرب الغرب، وحيث الموعد مع السلطة.

وفي عام 1992م بعد خمسمائة عام تلتفت أمريكا شرقا لتقول بالنظام الجديد، وتقول للشرق إنك شرق وأنا ـ وحدي ـ الغرب.

3-1 هناك في غرب الغرب ينتصب تمثال الحرية، كتلة حديدية راسخة الأقدام، شاخصة العينين، تحرس باب الغرب.

وفي مقابل ذلك يتجمهر طلاب جامعة بكين في ميدان العاصمة، يتظاهرون وفوق أعناقهم نماذج صغيرة لتمثال الحرية.

هنا في شرق الشرق تتراجع اللغة الشرقية لتترك المجال للغة الغربية لتعبر عن حلم هؤلاء الشباب الشرقيين الذين لم يجدوا مفردة صينية تتكلم عنهم، فاستعاروا من النظام العالمي الجديد إشارة تتكلم، وعلامة تصرخ لتقول إن الشمس في غرب الغرب، وإن الحرية هناك.

وبما أن الحرية غربية، وبما أنها راسخة القدمين هناك على مدخل نيويورك، فإن اللغة التي تلقاها الشباب الصينيون كانت بضع رصاصات لكل واحد منهم، أصابت من أصابت، ومن لم تصب فله هراوات، وبعض ركلات. وسلامات لمن كان في ساقيه فضل قوة أوصلته إلى مأمنه دون أن يلحظه جار أو زميل. وسلامات لمن حيي ولمن مات.

ولكن تبقى السيدة في غرب الغرب تقرأ جرائد نيويورك حيث لاحظت صورها فوق أيدي الشباب الصينيين.

ولا أريد أن أهين السيدة فأكشف عن همهمة دارت بين شفتيها حيث كانت تسأل عن حقوق الطبع وحقوق التوزيع وعن نصيبها من ذلك. ويا ترى من سمح للصينيين بأن يسرقوا التكنولوجيا الغربية، ومن صدر إليهم صور السيدة.

آسف لم أكن أقصد إساءة الأدب، ولا التطاول على السيدة. إن كان ظني هذا غير صحيح فإنني أعتذر منك (يا أبانا الذي...).

* * *

2 بجماليون الثانية

2-1 يقول دي سيرتو في عبارة طريفة ولاذعة إن الثقافة مثل الفلوس تتجه الى جيوب الأغنياء.

وكذا راحت الثقافة الإنسانية تشق طريقها من الشرق إلى الغرب، والى غرب الغرب. تسير مع المهاجرين والفارين، ولعل العقل البشري كان يفر من داره القديمة إلى دنيا يتجدد فيها ويعيد كتابة نفسه وتاريخه، بعد أن يمل القعود في الخمول والركود والمعتاد.

ولا ريب أن الخيال الإنساني كان يمارس تطلعاته إلى جزيرة بعيدة هناك، وراء البحار، تعوم وسط المياه فتظهر حينا وتغيب أحيانا. يراها بعض المحظوظين، فيجد فيها النساء الحسناوات والفواكه اللذيذة والمجوهرات النادرة، حيث حصاها ذهب وترابها مسك، ونعيمها دائم. قد يكون اسمها واق الواق وقد يكون (يورا) كما عند القزويني. وقد تكون جزائر بأسماء وصفات ينطلق الخيال في صناعتها وصياغتها. وعند القزويني أيضاً جزيرة سماها جزيرة النساء، لا رجل معهن فيها، يلقحن من الريح، ولا يلدن إلا نساء مثلهن.

وكذا هي كل الأدبيات الإنسانية تحلم وتحلم بجزيرة خلف البحار

(جزيرة عند مغرب الشمس).

2-2 هل أمريكا هي الجزيرة التي حلم بها العالم؟.. هل هي الحلم البشري البعيد هناك؟

لا شك أن المهاجرين من الجياع والمضطهدين وطلاب الحظ كانوا يتجهون غرباً باتجاه حلم عميق بوطن يفتح لهم أبواب الفردوس الدنيوي بكل ما فيه من حرية ومن ثراء.

ولكن الحلم ـ أي حلم ـ لا يظل حلماً إلا إذا تمنع على التحقق، ولذا فإن (جزيرة النساء) عند القزويني تختفي وتتوارى حينما ذهب وفود ملك الصين باحثين عنها. وتورط التاجر الذي روى الحادثة وظهرت قصته وكأنها خيال لفكر مجنح وليست مغامرة لفاتح جريء.

واختفاء جزيرة النساء هو الذي يجعلها حلماً ترويه الإنسانية وتمارس تطلعاتها الهائمة من خلاله.

أما لو تحقق الحلم.. فماذا يحدث لهذه الحالم؟..

لقد جرب شاب قبرصي هذا التحقق حيث نحت تمثالاً أبدع في نحته وصياغته فجاء جماله خارقاً وأخاذا. ووقع الشاب في غرام مع تمثاله، وتمنى أن يمتلك التمثال حياة لكي يتزوج منه. ومن سوء حظ الشاب فقد تحققت رغبته، وسرت الحياة في التمثال وصار كائنا بشريا حيا. ومن هنا جاءت خيبة أمل الشاب لأن فتاته هذه صارت مثل البشر تمرض وتغضب ويعتريها ما يعتري غيرها من ظروف وعلل ونواقص. وضاع الحلم والجمال لأن الواقع لا يقوى على كمال متوهم وجمال مفترض. وضاع الحلم، وصارت (بجماليون) رمزاً لضياع المنشود وانكسار الجرة.

أو تكون أمريكا هي بجماليون الحضارة البشرية هل هي الحلم الذي تحقق فتحول من خيال أسطوري إلى واقع بشري؟

في النظام العالمي الجديد مجال للحلم ومجال للجواب. خاصة لو سألنا عنه شعب الصومال أو شعب البوسنة، أو لو سألنا عنه في شوارع واشنطن العاصمة في جورج تاون أو حتى في تلك المحيطة بالبيت الأبيض.

لقد كانت بجماليون جميلة وخارقة وأخاذة. لقد بلغ جمالها حدا يخلب الألباب. ولقد خلبت لب الفنان القبرصي، ناحت التمثال، ولكنها بعد أن تحولت إلى واقع فعلي تلاشت مثل أي كائن بشري يدخل في المتغير

الظرف فيرتد - أخيراً - إلى أرذل العمر.

والنظام العالمي الجديد تمثال جميل نحته فنان صانع ماهر. وعشق الفنان تمثاله وهام فيه إعجاباً وتعلقا، وتمنى له حياة فعلية. وهكذا انطلق التمثال ليعيش بين الناس.

3-2 ما هو مصير تمثالنا الجميل.. وهل هو بجماليون الجديد؟ في الحملة الانتخابية الأمريكية تستمع إلى الخطب والمناظرات في أمل أن تجد خبراً عن التمثال، عن النظام الجديد، فيصدمك الانتظار ويروعك الغياب حينما لا تسمع ذكراً لذلك الجديد.

ما باله لا يرد إلى ألسنة الخطباء.. أليس هو الجديد الذي تطلعنا إليه؟ أليس هو الحلم الذي من أجله ارتحل الشرق إلى غرب الغرب؟ ألم نفرح بتحطيم آخر مملكات الشرق لكي يبزغ فجر هذا الجديد؟

ما بال النحات لا يحكي عن تمثاله؟ ربما يكون غرب الغرب مشغولا بنفسه عن كل ما هو مشرق. وهنا يكون النظام العالمي الجديد وجبة فطور قدمتها الضيافة الأمريكية الكريمة على شرف الشمس الآتية من المشرق، وانتهت الحفلة بعد ذلك.

ولكن الشرق مازال جائعاً ومازال مضطربا ومازال يعاني من الجوع والحرب والخوف. ولم يزل الشرق تائهاً. وقد توجه بكل ما فيه وما عليه نحو الغرب ونحو غرب الغرب، وقد سال لعابه على ذلك الفطور الأمريكي اللذيذ.

ترحل الشرق بدءاً من أهرامات مصر وسور الصين، وكل ما ورثه الآخرون عن أسلافهم وحطموا من أجل ذلك كل العقبات، بما في ذلك جدار برلين الذي كسروه ارباً إرباً لكي تسير قوافل الشرق نحو الغرب. وحتى البيتزا الايطالية والفلافل العربية التي فرت من عقالها لتتبهر بالنكهة الأمريكية وتمارس حلمها مثل غيرها في جزيرة الأحلام، والنظام العالمي الجديد.

4-2 يحزننا أن ينسى الفنان فنه، وأن يتجاهل النحات تمثاله، ويحزننا أكثر أن ينشغل المبدع عن إبداعه. وأن تأخذ المبدع دواعي الحياة ومشاغل الوظيفة بعيداً عن نصه الجميل وعن عمل صار إنجازا لهذا المبدع وعلامة عليه.

صحيح أن بعض المبدعين يتأثر كثيراً من ملاحظات النقاد. ولقد رأيت نعوم تشومسكي يصف التمثال بأنه منافق. وقال إن سياسة أمريكا والنظام العالمي الجديد مصابان بما سماه النفاق الأخلاقي. لأنه ينظر بعين واحدة ويزن بكفة واحدة وليست بقع الأرض عنده على حد سواء. ولذا فإن شمسه شموس، وكلمته كلمات. بعضها يصلح هنا وبعضها يصلح هناك.

وتتغير عنده الأسماء والأفعال والرغبات، فيكون النظام عالميا في أماكن. وبإزائها مواضع آخر تظل خصوصية ولا تحتاج إلى (الجديد).

هذا مأخذ يقول به النقاد. وهم بذلك لا يوجهون اتهاما ولكنهم يصفون أفعالا.

إن السلطة الكونية وهي تتجه إلى الغرب، تجعل من الغرب سيدا كونياً. ومن صفة السيادة العدالة، وكما يقول الجاهلي: وليس زعيم القوم من يحمل الحقدا.

إن من أخذ البيتزا من مبتكريها فأضاف عليها صفات المهارة لهو طباخ ماهر.

وكذا من أخذ (بجماليون) من الفنان الشرقي فإنه فنان يواجه تحديا إبداعياً بجعل تمثاله الجديد يحمل اسماً خطيرا بما إنه يتصف بصفة (النظام العالمي الجديد)، فهل يقود العالم إلى أجل نهائي بما أن قدر السلطة الكونية أن تجد نهايتها في الغرب، كما تقول شخصية امبرتو ايكو؟

أم يا ترى يستطيع المبدع أن يكتب نصاً لم يسبق إليه ؟

* * *

3 الضمير المكشوف

3-1 يقول الشاعر الألماني بريخت:

أفضل شيء في أمريكا

هو أننا نفهمها...

تلك هي أمريكا كتاب مفتوح قابل للقراءة وللفهم وللتفسير. وكذلك هي: قابلة لسوء الفهم ولسوء التفسير.

إنها أشبه ما تكون بالنص الملحمي، الذي ينطوي على بساطة ظاهرية، وعلى تعقيد داخلي. ينظر فيه الناظر فيتسلى ويتوهم السهولة ومن ثم السيطرة عليه. ولكنه نص مضطرب متملص وزئبقي. يعطي كل ناظر بعض ما يريد ويخفي عنه أشياء.

ولكنها ـ مع ذاك ـ كتاب مفتوح قابل للفهم ولسوء الفهم، مثل أي نص إبداعي ينطوي على المجاز وعلى الضمني والمضمر، وما أكثرهم أولئك الذين حاولوا قراءة هذا النص الأمريكي العجيب. وكم وثقوا بصدق تصوراتهم وصحة تأويلاتهم، منذ قراءة ماو تسي تونج المشهورة ونبوءته بتحطيم العملاق من الداخل. ولكن العملاق لم يزل يزداد عملقة وجبروتاً. إنه مثل كتاب مسموم يقتل قارئه ولا يموت هو ـ كما تقول حكاية

ألف ليلة وليلة عن الحكيم دوبان.

هل صارت أمريكا هي الكتاب العالمي المفتوح؟ مثلما هي الحلم الكوني. هل ظلت مخبوءة على مدى القرون لكي تظهر أخيرا وتتحول إلى فرانكشتاين الذي ينقلب على صانعه ويدمره؟

هل هي كتاب مسموم فعلاً؟

2-3 فلننظر في صفحة من أوضح وأبرز صفحات هذا الكتاب. تلك هي الصفحة المتكشفة لنا في مناظرات المرشحين لرئاسة الجمهورية.

إن هذه واحدة من أوضح صفحات أمريكا لأن المرشحين يحرصون على كشف ما لديهم وإعلانه من جهة، ولأنهم يحرصون على قول ما يريده ويطلبه جمهورهم العريض. وهم فيها لا يخاتلون ولا يخادعون ولا يتهربون. إنهم يعلنون بوضوح وجلاء عما في نواياهم وعما في رغبات جمهورهم. نعم قد يكذبون. لكن كذبهم هنا هو كذب الكشف والتصريح وتقديم الوعود المرغوبة، وليس كذب الإخفاء والتستر والتمنع.

وهذا يختلف عن حال سياساتهم حينما يمتلكون زمام السلطة. إذ هناك تتغير الحالة وتصبح دواعي الحكم ومصالح السلطة أكبر وأقوى من رغبات الجمهور. بل إن رغبات النخبة وقوى الضغط هي التي تدير الحكم، مما يعقد صفحات الكتاب ويخفي معالمها.

ولذا فإن اختيارنا لصفحة المناظرة الانتخابية يجعلنا أمام أكثر الحالات وضوحاً وجلاء.

3-3 إن كانت المناظرات الانتخابية كشفا لما في ضمير أمريكا، فلنقف عند هذا الضمير المكشوف لنقرأ فيه حقيقة (النظام العالمي الجديد). هذه الكلمات الثلاث الجميلة. هذه الكلمات التي ابتدعتها أمريكا لنا منذ ثلاث سنوات. ثلاث كلمات في ثلاث سنوات، ما هو حالها في الضمير الأمريكي؟

في المناظرة الثانية للمرشحين الثلاثة لعام 1992 م حضر في القاعة مائتان وتسعة من المشاهدين. وقدم كل واحد منهم سؤالا. ومن بين مائتين وتسعة أسئلة جاء سؤال واحد وحيد عن (النظام العالمي الجديد).

سؤال واحد فقط، أقل من عدد مفردات الشعار، وأقل من أي حساب

للنسب، في حين لم يرد في المناظرتين الأولى والثالثة أي سؤال عن ذلك الطفل الجميل ذي السنوات الثلاث.

جاءت أسئلة عن قضايا المرأة والملونين والمعوقين وعن البيئة. وأخرى عن العاطلين وعن التعليم وقضايا الاقتصاد والضرائب. وتكررت هذه من الجمهور ومن الصحفيين، وتحمس المرشحون الثلاثة في الإجابات وقدموا وعوداً تفرح كل حالم بمستقبل أفضل.

ما عدا طفلنا الذي تجاهله أهله وصار كاليتيم أو هو في طريقه إلى اليتم والنفي، والتشرد في عواصم الشرق وأرياف الغلابة والجياع والمضطهدين، في مشارق الكرة الأرضية.

كم كنت أود أن لو عرفت ذلك السائل أو السائلة التي سألت عن طفلنا الحبيب. لو عرفتها لقلت لها ما قاله امرؤ القيس لامرأة الجبل (وكل غريب للغريب نسيب).

أنت يا من تفردت من بين الجميع في همومك في أحاسيسك، هلا تقدمت إلَى كرسي الرئاسة لتعطيها الحكمة وصوت الضمير؟

هذا الضمير الضائع بين هموم البشر. هذا الضمير الذي مازال يتذكر طفلاً صغيراً لما يشب عن الطوق بعد.

لكم حزنت لصوت السؤال الفريد، وأحسست بغربته وعزلته وأحسست أن الشرق كله لا يعدل سوى واحد من مائتين وتسعة.

4-3 ذاك هو وضع السؤال. فماذا كان الجواب؟..

تكلم روس بيرو عن الحرية والرأسمالية ووهبهما للعالم، أي للشرق واحتفظ للغرب (أي لأمريكا) بما سماه بالاقتصاد العظيم كأساس للقوة العظمى. ولم يتفوه قط بمصطلح (النظام العالمي الجديد). وكأنه مصطلح محرم لا يجوز ذكره أمام الناخبين. ربما لاعتقاده بأن الناخبين لا يحبون هذه الكلمات المحرمات. أو لعله اعتبر هذا المصطلح من خصوصيات جورج بوش التي لا تعني أحداً سواه.

أما كلينتون فقد انطلق من فكرة (القوة العظمى) تلك القوة التي ستمنح العالم الحرية والديمقراطية. ولم يذكر الرأسمالية. وترك هذه الأخيرة لتكون حقاً خاصاً من ممتلكات المليونير روس بيرو. ولكنه شاطر خصمه في كلمة (القوة العظمى) تلك التي تسود وتسيطر وتهب المحتاجين

كلمات حساناً هي الحرية والديمقراطية، يشبع منها الجائع ويتشافى بها المريض ويتعلم الجاهل، و.. و.. الخ. ولم يذكر الكلمات المحرمات مثله مثل بيرو.

أما جورج بوش فإنه لم ينس أن يشير إلى أن ثلاثا وأربعين دولة شرقية قد تحررت، وقال بحاجة العالم إلى الحرية والديمقراطية (أيضا) ثم قال إن أمريكا سوف تختار من سيكون زعيم العالم الحر.

5-3 من تلك الإجابات يصبح (النظام العالمي الجديد)، أكثر وضوحا، وتصبح دلالته أقرب إلى عقولنا نحن الحالمين بالجديد وبالنظام، نحن الشرقيين الذين أصبحنا بضاعة كاسدة في سوق السياسة الغربية وشروطها الانتخابية، ودواعي ضميرها المعلن.

إن دلالات (النظام العالمي الجديد) هي الحرية والديمقراطية. وهذا يجعل المصطلح مجرد رديف لغوي لكلمات قديمة. وهنا تتلاشى صفة الجديد) إذ لا جديد في رغبة القوة العظمى، أي قوة عظمى بأن تمنح الآخرين الحرية والديمقراطية.

لقد ترددت كلمات الحرية والديمقراطية بوصفهما رقية سحرية تقدم للشرقيين، ترددت الكلمتان على ألسنة كل الرؤساء الأمريكيين، تماما مثل تردد شعار (المهمة الحضارية لأوروبا). وهو الشعار الذي من خلاله توجهت الجيوش الأوروبية شرقاً وجنوباً تنفيذاً لتلك المهمة التاريخية التي تحملتها أوروبا وحملتها على عاتقها لمدة تمتد إلى أكثر من قرنين. فلما تعبت من الحمل وثقل به كاهلها أمرت جيوشها بالانصراف مع الشمس إلى الغرب، ونسيت مهمتها الحضارية، بل إنها صارت تخجل من تلك المهمة وتتفادى ذكرها والحديث عنها، مثلما تتفادى العاهرة الحديث عن زمان فجورها بعد أن تتوب بسبب بلوغها سن اليأس.

وفي المقالة القادمة أستكمل القول عن طفلنا اليتيم وعن مصير هذا المشرد بين القارات والأمم.

* * *

4 العجز الابداعي

4 -1 هل (النظام العالمي الجديد) نظام جديد.. ؟

أم هل تعددت الأسماء والموت واحد.. ؟

إذا كانت أوروبا الاستعمارية قد وضعت شعار (المهمة الحضارية لأوروبا) عنواناً جميلاً لمغامراتها الاستعمارية في افريقيا وآسيا، فإن جحافل أوروبية أخرى كانت تجعل الدين والهداية ورسالة الله سببا لغزو الشرق الأوسط من جهة، ولغزو الهنود الحمر من جهة أخرى. وكانت روسيا العظمى من قبل تفعل مثل ذلك. ثم هدى الله الروس فصاروا يغزون العالم من أجل العمال المساكين. الذين تعشق موسكو سواد عيونهم فترسل من أجلهم الدبابات تدك كل ما هو أمامها من عمران ومن بشر، حتى ارادات الشعوب المعلن منها والمضمر لا يمكن للجيش الأحمر المظفر أن يغادر لها صغيرة أو كبيرة إلا ويكتسحها، كل ذلك من أجل العمال المساكين، ومن أجل العدالة والحرية الانسانية ومكافحة الامبريالية. .

إذن.. لا جديد في (النظام العالمي الجديد) ويتساوى هذا المصطلح مع المصطلحات الأخرى. تلك الكلمات التي تتعدد وتتنوع ظاهريا، ولكنه تنوع ينتهي الى نهاية واحدة: هي علاقة القوي بالضعيف.

والقوي هو مالك اللغة وقائد الجيوش وزعيم الرغبات. ولا بد أن تسير الريح بارادته.

2 - 4 (إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ولذا يجب تمثيلهم) هذا ما قاله ماركس عن العمال - كما ينقل ادوار سعيد في مقدمة كتابه (الاستشراق).

وفي الجهة المقابلة يقول جورج بوش: (إن أمريكا سوف تختار زعيم العالم الحر). قال ذلك في المناظرة الثانية كجواب على سؤال عن النظام العالمي الجديد.

زعيم العالم الحر لا يختاره العالم الحر. وإنما تختاره أمريكا فحسب. إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم. ولا يعرفون أن يختاروا زعماءهم، ولذا يجب أن تمثلهم أمريكا، وأن تتكلم وتفكر بالانابة عنهم. ومالهم وما لهموم التفكير ومعضلات الاختيار. إن التفكير يصيب الشعوب بالصداع، وليس كالنظام العالمي الجديد دواء لصداعات العالم وهمومه.

كذا يتكلم ماركس وبوش بلغة واحدة. تختلف مفرداتها، ولكن دلالاتها الضمنية واحدة.

إنها علاقات القوي بالضعيف.

وإذا ما جئنا الى الحرية والديمقراطية، فإننا نجد ثلاثا وأربعين دولة شرقية نالت حريتها. وتصدع الاتحاد السوفييتي كنتيجة لهذه الحرية المكتسبة، بعد احتلال طويل وصارم. ولكن أية حرية هذه؟ وأي مكسب نالته هذه الدول المقهورة؟

لقد نالت القرار السياسي الذي يتفاخر به النظام العالمي الجديد. وقدمت للغرب خدمة عظيمة إذ جعلته يرتاح من حرارة الحرب الباردة، لينام قرير البال على سرير وثير تعارفنا على تسميته بالنظام العالمي الجديد. ولكن ماذا بعد ذلك؟

هل تكفي الحرية السياسية لخلق السلام والنظام في الشرق؟..

هل الحرية السياسية تعني بالضرورة الحرية الاقتصادية الاجتماعية وحرية الضمير والارادة؟

أم هل ستحول المقهور من سيد الى سيد، ومن قيد الى قيد.

إن كـان كـارل مـاركس يقـول بضـرورة تمثيل المقهوريـن، فـإن النظـام الجديد يقـول بضـرورة زعـامتهم. ويظـل المقهـور عبـدا مملوكـا لسـيد يملك اللغة ويملك القرار.

ماذا سيحدث لهذه الثلاث والأربعين دولة؟

هـل سـتظل حـرة ـــ كمـا هـو ظـاهـر الآن ـــ وهـل سـتكفيها الحـريـة السياسية كسبب لوجود تاريخي ناقص الشروط.

هذه الـدول الشـرقية هـي القـابلـة التـي تولـت ميـلاد الطفـل العزيـز، طفلنا المدعو بالنظام الجديد.

ماذا لـو فقـدت هـذه الـدول حريتهـا، ودخلت في الفوضى، هل يسـتطيع النظام مواجهة الفوضى واعادة (النظام)..؟

إن شـاهـد لبنـان ومـا يحملـه من (فوضـى) لهو حـرج بـالغ ضـد النظـام الجديد. والقديم وكل الانظمة والمهمات الحضارية والانسانية.

3-4 يسـتطيع (النظـام العـالمي الجديد) أن يكون جديدا لـو أنـه قدم فلسـفة ذات مصداقيـة أخلاقيـة تعيد صيغـة العلاقـة مـا بين القوي والضعيف، وتبتعـد عن شـروط السـيادة والقوة العظمى. مثلمـا تبتعد عن قناعة القوي بأنـه يعلم كل شيء ويملك كل شيء. وبالتالي فإن ما لديه هو خير ما يمكن وأفضل ما يكون.

لـم تستطـع الولايات المتحدة تحويل علاقات القوة / الضعف إلى وجه انسـاني يتفق مع منجزاتهـا العظمـى في الداخل. وهـي لـم تـزل تقدم سياسـتين متنـاقضتين إحداهمـا داخليـة ديمقراطيـة، والأخرى خـارجيـة دكتاتوريـة. وبينهمـا وجوه أخرى ذات أقنعـة متنوعـة. حيث القناع الأوروبي غير الآخـر العربي والافـريقـي، وتختلـف هـذه مع وجوه أخرى منهـا مـا هـو للصين، ومـا هـو لكوريـا ومـا هـو لليابـان، علـى اختـلاف عظيم وتنوع يجعل الخـارج الأمريكي خارجـاً دراميـاً تنعدم فيـه شـروط النص الملحمي، وتحل نصوص مختلفـة متضاربة ومتضادة ومتقاطعة. ويكون نصـا عشوائيا كوجه آخر للنص الملحمي الداخلي.

إن أمريكا (لـم تتمكن الى اليوم مـن ايجاد اسلوب قوي يعتمد على ما هو أكثر عـدلاً وأقل قهراً من نظريـة السـلطة الحتميـة، تلك الحتمية التي تشـترك كل الأيديولوجيـات الثقـافية في فرضها). هكـذا يقول ويشهد إدوار

سعيد - وهو واحد من أولئك الذين تمكنوا من سبر خفايا الضمير الأمريكي، ويشترك بذلك مع تشومسكي، ولقد ورد نصه هذا في مقالة كاشفة عن علاقات القوي بالضعيف بعنوان: Representing the colonized . تمثيل المستعمَر - بفتح الميم - ألقاها في اتحاد الانثروبولوجيين الأمريكيين في شيكاغو 1987م.

وهذا يكشف عن عجز ابداعي، ويجعل الدنيا الجديدة تكرارا واعادة للدنيا القديمة. ولن يكون بين أيدينا نظام جديد.

وسوف نظل على (قديم) عهدناه وجربناه، بل إننا - نحن الشرقيين - اساتذة فيه. حيث إن القهر مهارة حضارية تشرف الشرقيون بانتاجها وممارستها على قرون. ومن هنا فإن الانسان الذي غزا الفضاء لم يتمكن - بعد - من غزو مصطلحاته وعلاقاته مع الآخر.

ويظل الآخر مادة للعطف الظاهري، والقهر الضمني.

وليس للآخر من وجود إلا بمقدار ما يقدمه سؤال واحد من بين مائتين وتسعة أسئلة.

ولكن.. هل هذه عدالة..؟ أي هل يحق لنا معشر الشرقيين أن نطلب من أمريكا غير ما كانت الحضارات الأخرى، والقوى الماضية، تفعل..؟

ربما لا يحق لنا ذلك، ونكون نحن الظلمة والمعتدين أو المتطاولين والمتطفلين على طعام ليس لنا وعلى مائدة مرصوفة لغيرنا، في وقفات قادمة سوف أقف على هذا الافتراض البريء جدا.



5 Order.. Order.. Order

5-1 يروي ابن حزم في (طوق الحمامة) واقعة شهد عليها عن صاحب له وقع في غرام مع فتاة وهمية. وهي فتاة رآها في منامه فتعلق بها في صحوته. وبلغ العشق مبلغاً أورثه السقم والاعتلال بفتاة لا وجود لها. ولم تكن صورة الحلم تمثيلاً عن أي واقع وليست على شبه مع أي امرأة حقيقية.

وتعجب ابن حزم من حكاية صاحبه هذا ومن شدة تعلقه بوهم خلاب، ومازال ابن حزم بصاحبه حتى تمكن من تسليته وصرفه عن غرامه الوهمي.

وليس عجيباً أن يتعلق المرء بالوهم. وكذلك ليس من العجيب أن تطارد الأمم والثقافات أوهاماً مصطنعة. بل إن عدم وجود الأوهام هو الذي يقتضي العجب.

وما أكثر ما تسعى الثقافات الى خلق أوهامها الخاصة بها، والى تصديق هذه الأوهام والتكاذيب وكذا التعلق بها والتبشير بها.

إن الوهم مخلوق جميل لا تقوم ثقافة إلا بوجوده ولا ينتظم مزاج فردي أو جماعي إلا بمعاشرة الأوهام والرؤى الحرة من شروط الواقع

والمصداقيـة. ولـن تنسـجم ثقافـة مـع تاريخهـا إلا إذا تمكنـت مـن تخليق أوهامها عن نفسهاوعن العالـم من حولها. ولذا صارت الملاحم والبطولات الخارقة والأدبيات الجانحة في خيالها وفي (لا واقعيتها) و(لا مصداقيتها).

وإن كان عصر الملاحم قد اختفى وانتهى فإن الوهم لما يزل يمارس وجوده الفاعل والمؤثر والمطلوب في كل تفعيل ثقافي وحضاري.

وتأتي اللغة بوصفها تجسيدا عمليا للوهم فتمنح الانسان مادة متكاملة لمرامه الخيالي فتعطي المعدوم وجوداً، وتكون (العنقاء) اسما وعلماً وثقافة، ولكنها اسم من غير مسمى، وعلم من غير جسد، وثقافة من غير تاريخ، ورسم من غير صورة.

وهذا الاسم الذي بلا مسمى ظل صوتاً لغوياً فاعلا يخلق الوهم ويغذي الخيال ويملأ فراغ التصور والتمثل.

2-5 إن كانت العنقاء معروفة الاسم مجهولة الجسم (حسب القاموس المحيط) فإن هذا الوهم العربي القديم يقابله وهم أمريكي معاصر. وهذا الوهم الأمريكي يتماثل مع ذلك العربي من حيث كونه معروف الاسم مجهول الجسم، واسم هذا الأمريكي هو: The new World Order وترجمناه ـ نحن معشر العرب ـ الى: النظام العالمي الجديد. ولم يكن من باب السذاجة فينا أن جعلنا كلمة (نظام) بديلا اصطلاحيا لكلمة (Order).

لقد فعلنا هذا لكي نمارس حقنا في الوهم وايهام الذات بنقلة متفائلة من موحيات السلطة والأمر التي هي تداعيات الكلمة الانجليزية (Order)، تلك الكلمة ذات البعد السلطوي الآمر على لسان قاضي المحكمة أو رئيس البرلمان، أو علاقات السلم الكنسي، إنها نقلة من لسان السلطة والطبقة الى حال (النظام) لكي نتوهم قيام علاقات متوازنة بين العناصر العالمية المكونة لذلك النظام المتوهم.

نعم.. جميل هو الوهم وجميل أن تكون ـ وأنت الضعيف ـ عنصرا في (نظام) يسمح لك فيه القوي بأن تكون على علاقة جديدة معه. ولسوف تنسى الموحيات الدلالية لكلمة (Order) بمجرد أن تترجمها الى (نظام) وتجعل من حياد الكلمة العربية سببا لحياد متفاءل به في علاقات القوي مع الضعيف.

سـيدي النظـام الجديـد

أنـت عـالمي الوجـه واليـد واللسـان

لقـد سـميناك بالعربيـة (نظامـاً)

وكـان قومـك قـد سـموك (Order)

لقـد أعطينـاك رقيـة سـحرية

كـي تكـون لطيفـا هينـا وانسـانيا

أنـت وهمنـا الجميـل

وأنـت عنقاؤنـا

هكذا أنت عندنا.. فما تكون عند أهلك.؟

3-5 عندما كنت في أمريكا لم أحاول قط أن أتحدث مع الأمريكيين عن النظام العالمي الجديد، على الرغم من تعلقي العاطفي بهذا المصطلح، وعلى الرغم من تسامحي الكريم جداً مع نفسي ومع ثقافتي في ممارسة هذا الوهم واطلاق عنان الخيال وراءه.

لم أتكلم عنه مع الأمريكيين لأنني كنت أستطيع تصور حالتي أمامهم لو أنني أعلنت عن عشقي لفتاة رأيتها في المنام دون أن يكون لها أي وجود حقيقي. اسم بلا مسمى. اسم بلا جسد.

أتكلم عن اللاجسد في ثقافة الجسد!!!

كنت ـ إذن ـ سأسرد وأروي لهم حكاية رومانسية شرقية لا أكثر.

سيكون موقفي مدعاة للشفقة وللمجاملة. وما أقسى أن تكتشف أن حبيبك الغالي رخيص عند غيرك، أو أن شموسك ليست سوى شرائح همبورجر عند غيرك.

لقد كان الاحتفال بالنظام العالمي الجديد مهرجاناً اجنبيا ومناسبة خارجية، لم يشعر بها الأمريكي. باستثناء المتحدث الرسمي باسم البيت الأبيض وأحياناً المتحدثة باسم وزارة الخارجية.

لكن المصانع الأمريكية لم تعلم به، ولذا فإنها لم تصنع الصحون والأطباق بشعار النظام، وظلت قمصان الأمريكيين نظيفة وخالية من عوالق هذه الكلمات الثلاث. ولو أحس أصحاب المصانع برغبة الناس

باحتضان هذا الشعار لبادروا بادخاله الى حقائب ايديهم، وطرزوه قصائد على قمصان تتزين بها صدور الحسناوات وعضلات الشباب ولتوجوا به قبعات الكهول.

لقد كان الفرح مناسبة خارجية.

وهل تفرح الضرة بمولود ضرتها..؟

كان النظام الجديد نتيجة لحوادث خارجية مما يجعله خارج سياق التفاعل الأمريكي الداخلي ـــ إنه ابن الضرة ـــ ولذا فهو مصطلح معلق، شعار من دون لوحة.

إنه وصف لواقع خارجي ولحوادث حدثت لغير الأمريكيين. لم يصنع الامريكيون هذا النظام العالمي الجديد، لقد وجدوه أمامهم.

هكذا صار: انهار الاتحاد السوفييتي وتمزقت الممالك الشرقية، وتعرى الكرملين وكشفت الـ (كي. جي. بي) عن ساقها وعن سوءتها ولم يطق البيت الأبيض أن يكبح جماح وهمه، فسمى الحادث بهذا الاسم: النظام العالمي الجديد. كعنوان جميل وكإعلان أنيق عن سقوط الخصم.

لم يكن ذلك الشعار الذي هو النظام العالمي الجديد تصورا لمنهج في التعامل أواستراتيجية سياسية مختلفة، ولم يكن تطورا ذاتيا. فيما يخص أمريكا.

إنه مجرد وصف لحال وإعلان دبلوماسي لبق عن سقوط الخصم، وصفا الجو للعنقاء الأمريكية فباضت وصفرنا، باضت الشعار وصفرنا نحن لهذه الكلمات الثلاث. ووضعنا كلمة (نظام) بديلا عن كلمة (Order) لكي يكتمل الوهم ويسعد الحالمون باجازة ـ ولو قصيرة ـ وينسون بها همومهم، ريثما يعود العالم الى سياقه التاريخي في المنافسة والاصطراع وسيطرة القوي على الضعيف، مع ازدياد الضعيف ضعفا وتشرذما، وصراع الضعفاء فيما بينهم وتفككهم من داوخلهم لكي يظل القوي متسيدا ومسيطراً.

ولتعش لنا أوهامنا فهي أجمل هدايا اللغة وأجمل صنائع الثقافة ولا ريب أننا قد عشنا بها زمناً رغداً. وذلك هناء لم نكن لنراه لولا ما اصطنعناه من أوهام. وإن انصرفنا عن كتابة الملاحم في عصرنا هذا ورغبنا عن الرومانسيات فليس لنا سوى أوهامنا وتكاذيبنا نصنعها

فنصدقها الى أن نعجز عن الاستمرار في اللعبة، وحينئذ تأتي خيبة الأمل ويبدأ الأغبياء يفيقون من غفوتهم فيبدأون ـ حينئذ ـ بكتابة التحليلات الغبية عن تغيرات السياسة والشروط الموضوعية لما حدث ويدبجون ذلك في بحوث تملؤها الهوامش والاستشهادات فيصفون الموصوف ويعرفون المعروف ويملؤون المملوء ويفرغون الفارغ و.. ولا يفعلون ولا يقولون شيئا.

أما الحالمون فسيبحثون عن وهم آخر يتعلقون به، ويظل القوي على كرسيه يأمر وينهى Order, Order, Order

* * *

6 الحلم الأمريكي

6-1 ماذا جرى للحلم الأمريكي..؟

هذا سؤال تسمعه في كل محفل جماهيري في أمريكا. وهو سؤال يطلق كإعلان عن فقدان الحلم وتلاشيه. لقد جاءت أمواج الهجرات تاركة العالم القديم وراء ظهرها بحثا عن حلم كبير بالرخاء والنماء والحرية. وتخلق هذا الحلم وكبر في رؤوس المهاجرين، وظل يكبر ويتوسع مع الأجيال المتتابعة التي تتوارث الحلم وتنميه.

ولكن الأحلام شيء والواقع شيء آخر ، ومع الواقع جاء السؤال عن الحلم المفقود وعن الفردوس الأرضي الذي باع المهاجرون ماضيهم وتاريخهم من أجله.

ماذا جرى للحلم ؟!.

هكذا يسأل السياسيون عن الحلم الأمريكي وكأن السياسي قد صار شاعراً يهجس بمشاعر الناس، ويلمس المفقود والمطلوب في حياتهم، سياسي من نوع غير شرقي يرى الغائب والناقص وما خلف الواقع ويترجمه الى سؤال انكاري ولكنه - رغم انكاريته - يتضمن وعدا خلابا من السياسي بأن يعيد الحلم إلى الحالمين إذا ما أعطوه زمام السلطة.

وهنا يختلف السياسي عن الشاعر، ويقترب من مثيله الشرقي. إذ إن الوعود بالفردوس وبالثبات والنبات لا تأتي من شاعر، وتحتاج إلى سياسي مراوغ وخطيب دعائي يجيد لعبة التعرية من جهة ومنح الوعود من جهة ثانية، يعري خصومه ويعري الواقع لكي يمنح نفسه كرسيا في هذا الواقع المعرى ولكي يقنع الناس بحاجتهم الماسة إليه ليعيد لهم حلمهم. أليس هو الذي كشف عن غياب الحلم وأعلن كشفه هذا..؟

ثم إن السياسي بخطابه الشاعري لن يعجز عن جر الناس الى لعبة البحث عن المفقود شريطة أن يلعبوا تبعاً لقواعده هو وحسب شروطه.

2-6 إن مصطلح (الحلم الأمريكي) من أكثر المصطلحات ترددا في الخطاب الاعلامي والخطاب السياسي في الولايات المتحدة. وهذا المصطلح يستند إلى ذاكرة عميقة وحساسة لدى الامريكيين.

هذه (الذاكرة) الأمريكية تختلف عن الذاكرة الشرقية وعن أية ذاكرة في العالم القديم.

إن الذاكرة الأمريكية تنقسم في داخلها الى ذاكرتين متغايرتين. واحدة مطمورة منسية، أو في الأقل هناك رغبة حقيقية في تناسيها وإلغائها. وهي ذاكرة الماضي القديم والجذور الأولى والتاريخ السابق للمهاجرين، حيث الشرق وشرق الشرق والدنيا القديمة، مع الفقر والحرمان والاضطهاد. حيث الماضي الذي هربت منه الذاكرة ولا تريد عودته ولا تذكره.

وفي مقابل هذا المنسي والهروب منه تأتي ذاكرة أخرى، حية وحاضرة، هي ذاكرة الأرض الجديدة، الأرض الحالمة، أرض الرخاء والنماء.

وفيما بين هاتين الذاكرتين يأتي (الحلم الأمريكي) ليمثل لحظات الهروب والانتقال من ذاكرة الى ذاكرة. من القديمة الى الجديدة. من الحرمان الى الوعد.

وهنا يجد الخطاب الاعلامي والخطاب السياسي مرتعا خصبا لدغدغة المشاعر وتحريك الاحاسيس ثم ملء هذه الأحاسيس بما تريده هذه الخطابات من حفز أو تثبيط.

ولذا فإن مصطلح (الحلم الأمريكي) سيظل شعاراً فاعلا في الخطاب

الجماهيري يمنح الخطباء مادة للقول وصيغة للتحريك والتأثير، وسيظل الحلم بعيداً من أجل أن يبقى الشعار فاعلاً ومفيداً كضرورة خطابية واعلامية وسياسية.

ومساكين هم الشرقيون الذين ليس لديهم ولابمقدروهم طرح شعار كهذا. اذ لم يعد لدى الشرقي من (حلم). انه في أرض وجد نفسه فيها وقرأ في كتب التاريخ أن سلالاته القديمة كلها كانت في هذه الارض ولم يأت أحد من أجداده من مكان بعيد خلف البحار. مثلما فعل الأمريكيون. حاملاً معه الحلم بارض الوعود والبركات.

لم يعد في الشرق وعود ولا أحلام

إن الحلم أمريكي وحسب.

للقوي. فحسب. أحلامه

أما الضعيف فليس له سوى الاوهام.

هذا هو الفرق بين الخطيب الأمريكي والخطيب الشرقي، يتحدث الأول عن الحلم مفقوداً أو موعوداً. أما الثاني فليس لديه إلا أن يتحدث عن توفيق الله له ولاجهزته حيث وفقهم بالكشف عن (مؤامرة) أو (مؤامرات) أجنبية كانت ستقوض امن البلاد وتوزع الخبز على الرعاع. هؤلاء الرعاع الذين يجهلون أبسط قواعد الغذاء ولا يعرفون كيف يطعمون اطفالهم الكيك بدلاً من الخبز الذي لايجدونه ولا يقدرون على دفع ثمنه.

ينقص الامريكي حلم ولذا يعده سياسيوه بهذا الحلم. اما الشرقي فلا يحتاج إلى الحلم ولذا فلا داعي للوعود باحلام لاحاجة إليها.

هنيئاً لأمريكا أحلامها.. ولكن لمن هذه الاحلام..؟

3-6 ما بين العامين 1492 و 1992 م خمسمائة عام من التاريخ احتفل الامريكيون بذكرى وصول سفن كولومبوس الثلاث حيث ابتدأ الحلم الامريكي، لقد احتفل الامريكيون بذكرى هجرة الذاكرة من عالمها القديم إلى عالمها الجديد، احتفلوا وتكلموا وحاضروا في كل وسائلهم ومنابرهم الاعلامية والعلمية والفنية. ولكن بقي فئة واحدة لم تحتفل ولم تفرح. هؤلاء هم الهنود الحمر. لقد كان عام 1492 م عام الكابوس

بالنسـبة لهـم. كـان بدايـة تـاريخ مـن التشــرد والموت والضيـاع. كـان نهايـة الحلـــم، ونهايـة التـاريخ ونهايـة الحيـاة. ومر عليهـم خمســمائة عـام من الكوابيس والشتات.

إن حلم اولئك هو كابوس هؤلاء.

وفي الوجـه الثـاني من الصفحـة نجد الدكتـور مـارتن لوثر كنـج يقف وسط واشنطن العاصمة بين آلاف من الحشود الحالمة يصرخ فيهم:

إني أحلـم...
إني أحلـم...
إني أحلـم...

وظل يحمل كلمات خطبتـه الحالمـة من مدينـة إلى مدينـة حتى جاءتـه رصاصــة أصـابت دماغـه وهشــمت جمجمته فتشــظى حلمـه وتطـاير مع قطرات دمه وقطع مـن لحمه ومخه ليدفن في المقبرة من دون جمجمة ومن دون حلم.

لقد مات بلا حلم.

إن حلم أولئك هو موت هؤلاء.

وعلى الغلاف الآخر من الكرة الارضيـة نجد الشـرقيين وليس لهم من شـيء سـوى (وهــم) خجول بنظـام عـالمي جديد لا وجـود لـه: هو اسـم بلا مسمى.

إن حلم أولئك هو وَهْم أولاء

وللأقوياء أحلامهم.

اما الهنود الحمر فلهم الكابوس.

ولمارتن لوثر كنج الموت.

وللشرقيين الوهم.

ومع الوهـم يبقى للشرقي ذاكرة واحدة فيهـا من الثقوب والجلطات ما فيها. ويظل الامريكي بذاكرتين احداهمـا تشبـه ذاكرة الشرق ولكنها منسية وملغاة والأخرى حية حالمة لها الحلم ولها المجد.

هي العظمى، وهي الحرية والديمقراطية.

وهي خمسمائة عام من التاريخ الأبيض.. وليعش الرجل الأبيض غريباً يبحث عن حلمه ويفتقده ويتواعد به.

وللأحمر كابوسه.

وللأسود موته.

وللشرقي أوهامه.

* * *

7 السيدة أمريكا

1-7 إن كان بريخت يقول:

أفضل شيء في أمريكا هو اننا نفهمها.

فإنني أقول: إن أفضل شيء في امريكا هو اننا نستطيع ان نسيء فهمها، ولا نخاف.

واننا نستطيع أن ننتقدها، ولا نخاف.

ونستطيع أن ننسب إليها كل شرور العالم، ولا نخاف.

ونستطيع ان نطالبها بكل دواعي الضمير والاخلاق والمسؤولية التاريخية والحضارية، ولا نخاف.

أفضل ما في أمريكا واجمل مّا فيها أنها طعام شهي لكل من اراد أن يأكل لحم أخيه، من دون أن يكرهه الناس من حوله ومن امامه.

كل الشعراء وكل المبدعين والمفكرين واصحاب الاقلام في بلاد العالم جربوا الكتابة عن أمريكا، وقالوا فيها وعنها كل ما خطر على بالهم. سواء عرفوها عياناً أم تصوروها ذهنياً. وحينما كتب برتولد بريخت عن أمريكا

دون ان يراها وسأله السائلون عن ذلك أجاب بكلمته هذه:

افضل شيء في أمريكا هو أننا نفهمها.

وسواء فهمها بريخت أم لم يفهمها، فلقد كتب عنها وكرر الكتابة في قصائد وفي أعمال نثرية مثله مثل غيره من كتاب العالم. وظل بريخت كاتباً طلائعياً واديباً عالمياً لم تهتز مكانته الادبية أو الاجتماعية، ولم يصبح رجعياً أو امبرياليا ولم يقل أحد عن فكره انه وعي زائف. ولم يتهمه أحد بالعمالة أو التعاون مع مخابرات ما.

هذه الكتابة عن امريكا.

هي صوت حر تمارسه الاقلام بلا رقيب وبلا محاسبة.

لقد سال حبر كثير على وجه امريكا وتكسرت الاقلام على الأقلام، ومازالت الكتابة مستمرة، ومازالت الاذهان تدخل في مباريات عقلية محتدة حول أطرف التاويلات وأغرب التفسيرات عن وجه أمريكا وقفاها، عن قراءة سياساتها والتنبؤ بحركاتها، وحتى عن مصير وجودها وعن مستقبلها.

كل هذا حدث ويحدث، ولا خوف على من يكتبون.

الكاتب لا يخاف، وأمريكا لا تتغير.

كل الكتابات التي كتبت وكل الحبر الذي سال على وجه أمريكا لم تستطع أن تغير شيئاً من قسمات هذا الوجه كالحا كان أم جميلا، وما تلطخ هذا الوجه من ذلك الحبر. وإن كان الحبر لم يستطع تلطيخ ذلك الوجه فإن مياه الشرق كلها ونفطه ودموعه لم تستطع قط أن تغسل خصلة من خصلات شعر السيدة. لقد ظل الوجه الأمريكي في قارته مثل العفريت في قمقمه يظل محبوساً فإذا خرج فإنما ليقول: شبيك لبيك، سيدك (وليس خادمك) بين يديك.

سيدة هي أمريكا، تسبها فتضحك وتجعلك تضحك معها، بل إنها تعطيك الأقلام والورق وضوء المصباح وتدعوك للكتابة وتسطير مشاعرك على جسدها وعلى جبينها.

كل ذلك لكي تشعرك أنها ليست شرقية.

ليست شرقية.

إن للشرق حكاياته وسحره، وله أيضاً طرائقه الخاصة في التعبير والاتصال. ومن هذه الطرائق ما رواه امبرتو ايكو في حكاية عن ترجمة روايته (اسم الوردة) الى احدى اللغات الشرقية — قبل مجيء البيروسترويكا ـ حيث اصطدم المترجم بجملة صغيرة في بداية الرواية تحكي عن مدينة (براغ) وتشير استطراداً الى الغزو الروسي لتشيكوسلوفاكيا. وهذا أحدث ارتباكاً للمترجم الذي اتصل بإيكو يطلب إذنه في حذف هذه الاشارة، إذ يصعب ذكر هذا الغزو. ولقد رد ايكو مازحاً وقال للمترجم الشرقي: إني أحب براغ وكذا أحب دبلن، ويمكنك أن تضع الأخيرة بدلاً من الأولى. فقال المترجم، ولكن الروس لم يجتاحوا مدينة دبلن، فرد عليه ايكو: هذه ليست غلطتي.

ولكن غلطة ايكو هي أنه ذكر حادثة تاريخية فاخترق الصمت الشرقي. هذا الصمت الذي صار أغلى ممتلكات الشرقيين يعالجون به ضمائرهم، ويسترون به وجه تاريخهم. وجاء ايكو ليكشف المستور فصارت خطيئته التي لا يقوى المترجم على مداراتها.

2-7 الشرق يستر ...

والغرب يكشف ...

خطابان مختلفان، خطاب الصمت والنسيان، وخطاب الكشف والتذكار.

والذي يكتب لا بد أن يعي شروط اللعبتين، فإذا ما كتبت عن الشرق فلا بد أن تضع حسابات لنفسك ولقلمك وتتأدب بآداب الشرق. فإن لم تفعل فأنت رجعي أو خائن أو عميل.

أما إن كتبت عن الغرب، أو أمريكا خاصة. وأكثرت من النقد والتعرية والكشف فأنت عند الشرقيين كاتب طليعي تقدمي مستنير تحارب الاضطهاد والامبريالية.

ومن هنا فإن أجمل ما في أمريكا أننا نقول عنها ما نقول ولا نخاف وهذا هو ما أسال أقلام العالم حبراً وكتابة عن أمريكا، وجعل أمريكا مادة للقراءة الحرة والمفتوحة، يجرب فيها الكاتب قلمه ومهاراته الذهنية، وهو

مصيب في كل ما يقول.

ولكن ما هو موقف أمريكا من كل ذلك..؟

إن أمريكا ليست مخطوطاً صامتاً تتداوله الأيدي من دون حول له أو طول.! إنها كتاب حي له مائة لسان بعدد الأمم والشعوب واللغات التي عبرت البحار واستوطنت هناك في الغرب البعيد.

وكل لسان له من الفصاحة والبلاغة ما يثير حيرة الشرقيين ويتحدى كل فصاحاتهم.

ومن فصاحة هذا اللسان قدرته على ابتكار المصطلحات البديعة مثل مصطلح النظام العالمي الجديد، ومثل مصطلح الحرية والديمقراطية لكل الشعوب.

وهذه مصطلحات لها قوة سحرية خارقة، قوة سحرية ينشغل الشرقيون بالكتابة عنها والتفكير فيها سنين طويلة، ويصرفون كل أرصدتهم المالية لشراء حبر يكتبون به قصائدهم ومقالاتهم عن السحر الأمريكي: الحرية والديمقراطية.

هذه الرقية الأمريكية لها دوران متكاملان، أولهما أنها طعم للشرقيين يتغذون عليه ويشغلون به عقولهم، والثاني دور داخلي يجعل الانسان الأمريكي يشعر بالراحة والاطمئنان في ضميره الانساني حيث يرى حكومته تدافع عن حقوق الشعوب الأخرى وتمنحهم الحرية والديمقراطية.

ولقد تعود الفرد الأمريكي على حكومته وعرف أنها حكومة صادقة في تعاملها الداخلي. والصدق عادة لا يتجزأ، ومن هنا فإن هذه الحكومة تصدق في قولها عن حرية العالم الآخر وديمقراطيته ودفاعها عن هذا الشعار. وهذا يعطي للمصطلح صفة الأخلاقية ويتخلص الضمير الأمريكي من أحاسيسه العالمية ، وينصرف الأمريكي إلى تمتيع نفسه والعيش بهناء. وتصبح المتعة حتى وإن بلغت حد الإسراف عملاً أخلاقياً لا يجرح الضمير منذ أن أحس الأمريكي بخلاصه من مسؤولياته العالمية بعد أن منح العالم هذه الرقية البديعة. وشكراً للسياسيين وما أعطاهم الله من فصاحة تحل كل مشاكل الضمير.

3-7 يرتاح الأمريكي وينام ملء جفونه عن مصطلحه ويسهر

الشرقيون وراء هذا السحر ويختصمون. ويبدأ نوع من الكتابات الفكرية والابداعية، حيث يصب الشرقي عصارة خياله على أمريكا وثقافة الخطاب الأمريكي. ويبدأ النقد والتشريح حيث يتلاقى الطلائعي في مواجهة سافرة مع الامبريالي. ويبدو على الطليعي وكأنه مثال أخلاقي. وتقرأ من فوق السطور افتراضاً بلاغيا يوحي لك بأن الخطاب الطلائعي خطاب صادق وإنساني، وأنه لو حكم العالم لقام بإصلاح أخطاء البشرية وقام بنشر العدالة والحرية والرخاء بين كل البشر، وأتى بما لم تستطعه الأوائل وما عجزت عنه أو ما عزفت عنه أمريكا.

ويستمر الخطاب حواراً صامتاً بين طلائعيه مثالية وواعدة من خلال نقدها للراهن وبين امبريالية فصيحة وذكية. تعطي الطعم تلو الطعم وتستمتع بالفرجة على السمك وهو يهرع مسرعاً باتجاه طعم وراءه صنارة متينة.

ووسط ذلك ظل الوهم الخطابي بأن الضعيف مثالي وانساني وأن القوي ظالم مستبد، وتختفي الحقيقة وراء ذلك، بينما يظل الظلم والحرمان هو اللون الأكبر على وجه الأرض ينتقل من مكان الى مكان ومن تاريخ الى تاريخ ومن أمة الى أمة. ويتساوى القوي والضعيف في انتاج المظالم وتصديرها، وفي ابتداع خطاب بلاغي يريح صاحبه ويشعره أن الآخر هو الظالم وأن الذات مظلومة من جهة ومثالية من جهة اخرى.

ويبقى لنا نحن هذا الاحساس الجميل بأن الكتابة عن امريكا هي أكثر الأفعال الثقافية أماناً، وهي أقرب الطرق إلى الطلائعية والمثالية.

وعلى جياع البشر ومحروميهم أن يناموا تحت حراسة سحر الكلام، وتحت دعوى تقول لو تسيد الجائعون والمحرومون لملأوا الأرض حرية وديمقراطية، ـ تماماً مثلما يقول الخطاب الأمريكي المعاصر ـ .



8 أوديب الأمريكي

1-8 تأتي الكتابة عن أمريكا وكأنها ضرورة ثقافية، لا تكتمل عدة كاتب ما إلا بها. بدءاً من كولومبوس ومذكراته عن الهنود الحمر والأرض والطبيعة، مروراً بكل كتاب العالم وشعرائه وسياسييه. حتى ليخيل للمرء أن خيالات الرحالة القدامى وخرافاتهم عن جزر عائمة واخرى مفقودة خلف مغيب الشمس إنما كانت نبوءات عن هذه الأرض المخبوءة خلف المياه.

هذه أمريكا أسطورة الخطاب الحديث. وان كانت الأساطير الاغريقية هي نواة كل ابداع أدبي، وهي السر الكامن خلف كل خطاب نقدي، فإن امريكا هي (يونان) العصر الحديث. حيث تجدها داخل كل خطاب ووسط كل معرفة، ووسيلة كل مثاقفة.

وبما أنها نص مخبوء داخل كل النصوص فإنها قد تحولت إلى (بطل) ملحمي. ومن شأن البطل الملحمي أن يكون تراجيدياً، مثل أوديب، الذي كتب عليه أن يهاجر عن دياره ليعود مرة اخرى فيقتل أباه ويتزوج أمه ويحكم الأرض، بعد أن انتصر على الوحش.

أفلا تكون أمريكا هي أوديب الأسطوري؟ اليس الشرق الآن ملك

يديها والشرق عندي هو كل ما يقع شرق الساحل الأمريكي، وذلك لأن أمريكا هي المركز، ومن ثم فإن جهات الجغرافيا تقاس بعلاقتها بهذا المركز.

أليس كل ما هو شرقها ملك يديها..؟ لقد تزوج اوديب الأمريكي أمنا الأرض، ـ ومات الآباء كل الآباء ـ بدءاً من سلاطين الكرملين وانتهاء بالامبراطور (هونكر).

هذا البطل المعاصر لابد أن يكون قوياً وجبارا وقدريا لكي يكون أسطورياً وملحمياً. ومن هنا فإن النظرة إليه تتحكم فيها شروط علاقات القاريء بالمقروء، لاسيما إذا كان المقروء أسطوريا. ولسوف يكون القارىء حينئذ هو الضحية التي تسعى إلى الدفاع عن نفسها عن طريق اتهام الآخر.

لهذا فإن (الموضة) الثقافية هي ذم أمريكا. ولا يوجد كاتب عالمي إلا وجعل شتيمة امريكا واتهامها شرطاً من شروط الكتابة عن أوديب الجديد. حتى إن الثناء على أمريكا قد صار كلاما ساذجا وممجوجا، لا يمثل ولا يقدم خطاباً معرفياً أو ثقافيا.

هذا يجسد العلاقة بين القارئ والمقروء في معادلة تنافسية تجعل المقروء قوياً وعظيماً وغنيا.

وتجعل القارئ ضعيفاً ومستلباً وفقيرا.

وفي معادلة كهذه لا تكون العلاقة إلا محاولة لقتل الآخر. والآخر هنا هو أمريكا فحسب، التي تمثل الأب والوحش. وتنشأ مع هذا رغبات متناقضة ما بين الكراهية المعلنة والمحبة المضمرة. وكل الذين يكتبون عن أمريكا بكره معلن ويطلبون موتها والقضاء عليها يتمنون ـ في الوقت ذاته ـ أن يكونوا مثلها أو ان يتجنسوا بجنسيتها، أي إلغاء الآخر إما بقتله أو بتحويله إلى (ذات).

2-8 هذا الهوس الكتابي عن أمريكا حولها إلى قوة ضاربة، ليس بما تملكه من جيوش ومخابرات وتكنولوجيا، ولكن بما تمثله من سلطان نفسي يشبه الرعب الميتافيزيقي الذي تمتلكه الأساطير. إذ احتلت أمريكا دواخلنا حتى صارت مؤسسة معرفية لها قوتها من جهة ولها تأثيرها من جهة ثانية، ومن ثم أخذت تتضخم داخل لغتنا وداخل تصوراتنا حتى صارت العملاق الذي لا يقاوم، واصطبغ العصر بصبغة أمريكا منذ أن

تحولت إلى اسطورة تتحكم باللغة وتوجه الخطاب.

ولن يكون أي كاتب من الكتاب عصرياً إلا إذا كتب عن أمريكا ومن لم يكتب - أو يتكلم - عنها فهو خارج زمنه وخارج عصره. حتى لقد غدت امريكا اشبه ما تكون بسفينة نوح. والعالم مأمور بأن يركب في السفينة، ومن لم يركب فسوف يغرق.

لقد حاول بدر شاكر السياب أن يتجنب ركوب هذه السفينة، ولكنه لم يستطع، مثله في ذلك مثل برتولد بريخت الذي كتب عن امريكا دون أن يراها.

حاول السياب أن يأوي إلى جبل يعصمه من سفينة أوديب الجديدة، ولكنه عجز وتعامل مع الشاعر ت.إس. إليوت (الأمريكي ولادة ونشأة). واضطر إلى تبرير هذه العلاقة بأن وصف إليوت بأنه شاعر رجعي ولكنه مبدع. ولو شاء السياب لقال إن إليوت هاجر من أمريكا عائداً نحو الشرق وجعل بريطانيا مقراً له، ومن هنا فإنه غربي متشرق، مما يقربه للسياب ويبرر التلاقي معه، ولكنها السفينة التي لا مفر من ركوبها.

3-8 وما دمنا قد وضعنا أمريكا في استعارة مجازية مع أسطورة أوديب، فإن وجوه التشابه تظل متلاحقة بين اطراف هذا المجاز، وهي تشابهات لا تقتصر على القوة والجبروت، ولكنها - أيضاً - تشترك في وجوه الضعف والانكسار.

فأوديب البطل ينكسر على نفسه من الداخل ليكون مثل غيره، وتتكسر نفسه وتتهشم احاسيسه، وكذا هي أمريكا من داخلها. حيث تراها كائناً بشرياً مثل أي كائن بشري آخر. إن الوحش في الخارج — فحسب - والوجه الصارم العنيف ينطوي على قلب هش حساس.

إن أمريكا تكوين بشري وانساني صحيح، قوية جبارة ومع ذلك حساسة وذاتية ومن الداخل ضعيفة كأي كائن حي، تشعر بالعزلة والخوف وتخشى المصير وترتعب من المستقبل. وهي مثلنا تجهل الحاضر وتخفى عليها أمور. وسلطانها لا يكشف لها عن الغيب ولا يحميها من غضب جماهير لوس أنجلوس، أو غضب الناخبين وخيبة آمالهم.

وهي بعد تفردها بالقوة بعد غياب الاتحاد السوفياتي سوف تكون أكثر عرضة للخطر والتهديد والقلق. ذاك لأنها كانت تقيس نفسها بالآخر المنافس لها. وكانت تبرر نفسها بذلك الآخر. وكانت تشحذ قواها وتنمي

تحفزاتها بسبب ذلك المنافس. وآية ذلك هي هبوط نيل أرمسترونج على سطح القمر. وهو هبوط صار بسبب تحفز جون كيندي في وجه المنافس السوفياتي، واصرار كيندي على أن تحقق أمريكا مكسبا فضائيا يفوق مكاسب السوفيات، فكان ذلك. ولولا هذا التحفز، وهذه المنافسة لتاخرت الرحلة إلى القمر مجاراة لتقارير العلماء حسب تخطيطاتهم المدروسة والحذرة. غير أن الغيرة السياسية كانت أشد حرقة، ونارها أنضج من نار العلماء، وهبط الأمريكي على القمر محققاً بذلك ما لم تستطعه الأوائل.

هذا من مكاسب المنافسة. أما الآن فلا منافس.

فهل ستظل أمريكا بلا منافس، أم انها ستخلق منافسها.

أو بالأحرى هل سيتركها التاريخ بلا منافس...!؟

ولكن.. قبل ذلك وبعده تظل أمريكا مركزاً للخطاب الثقافي المعاصر مما يجعلها أسطورة العصر وميتافيزيقيا العالم الحديث.

* * *

9 سلطة المصطلح

9-1 الشرق:

يأتي (الشرق) وكأنه امتداد طويل يغطي الرقعة الكبرى من الكرة الارضية. ممتد في بعده الجغرافي، وممتد في بعده التاريخي، فأكثر تاريخ البشرية هو تاريخ شرقي، في الديانات والآداب والتقاليد والأساطير، وفي الاجناس البشرية ولغاتها. حتى أولئك الذين ننعتهم بالغربيين ينتمون دينياً إلى الشرق، ولغوياً إلى عائلة اللغات الهندية (هندو أوروبية).

ويبدو ان الشرق ظل يزحف ويزحف نحو الغرب، في مطمح قديم يتطلع نحو حلم متأصل، يجاري الشمس ويجري وراءها، ولكنه يصطدم بالبحر في كل مرة ينطلق فيها خلف الشمس.

ولابد أن الشرق كان يتمدد بتلقائية شديدة، ولم يكن يشعر بتمدده ذاك، إلى ان التفت اليه الغربيون بعد أن نهضوا في قرونهم الخمسة الأخيرة، ولاحظ الغربيون ضخامة ذلك الشرق، فقسموه إلى مشارق. هي الأقصى فالأوسط فالأدنى. وما أبعد المسافة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى! وتسمية أقصى وادنى تعود إلى المقياس الاوروبي الغربي فالادنى هو الأقرب لأوروبا وما ابتعد عنها فهو أقصى. ويضاف إلى ذلك

بقع لا هي قصوى ولا هي دنيا ولا هي وسطى، تلك هي الدول المتحالفة مع الاتحاد السوفياتي (سابقاً). وهذه تلطف الغرب وسماها (شرقية) فهي الكتلة الشرقية أو اوروبا الشرقية.

وعلى هذا القياس فإن (الشرق) صار عريضاً وواسعاً وكبيراً وهو علاقة ثقافية لها صورتها الذهنية وموجباتها النفسية والعرقية، التي تحسن أحياناً حيث الاغراء والسحرية، وتسوء أحياناً أخرى حينما توحي بالخمول وذبول الحاضر وتعفن التاريخ بسبب عدم الاستعمال وقلة التحرك.

2-9 الغرب:

إن كان الشرق واضحاً بوصفه مصطلحاً جغرافياً وثقافياً فذاك لأن البعد المكاني يتطابق مع الدلالة الثقافية. وليس بعسير على أحد أن يقول إن فلسطين هي شرق أوسط بينما الصين شرق أقصى والدار البيضاء هي على آخر حدود الشرق الادنى. تلك معالم واضحة والفروق فيها تتطابق مع فروق اللون وأشكال الانوف وتغيرات الطقس.

ولكن ماذا عن الغرب..؟ هنا يختلف المصطلح ويأخذ وضعاً خاصاً في تكوينه، اذ ليس هو قياساً جغرافياً وهنا يصعب علينا أن نتصور دلالة كلمة هي في أصلها مصطلح جغرافي، ولكنها لا تستجيب لشروط البعد المكاني.

وإذا قلنا إن (المانيا) غرب وثقافتها ثقافة غربية، فهل نقول إن المكسيك) أو (بنما) تمثلان الثقافة الغربية بما أنهما واقعتان في غرب الكرة الارضية؟.

وهل سنقول عن بورخيس أو ماركيز انهما كاتبان غربيان، أم اننا نصفهما وننسبهما إلى أمريكا اللاتينية. وهذه صفة تختلف ثقافياً وسياسياً عن صفة الغرب والغربية.

إن مصطلح (الغرب) يستقل عن الحدود الجغرافية ويفارق بهذا مصطلح (الشرق). ويصبح الغرب مفهوماً ثقافياً أو لنقل (حضارياً). له بداية تاريخية وليس له بداية جغرافية. يبدأ من عصر النهضة الأوروبية، ويتسع في زمن الاستعمار ليشمل رقعة مكانية عريضة يتقوى بسببها داخلياً، وينتشر ثقافياً ويتمكن من غرس جذوره وتنمية شجرته. ثم يحقق

قمة تناميه باستيلائه على امريكا واستيطانه فيها. مما ضمن لمصطلح (الغرب) الاستمرار والسيطرة والتمكن. وهذا استمرار لتاريخ ولثقافة - يتجسد ذلك باللغة التي تتحكم بالتفكير وتصنع التاريخ.

وفي حين ظل مصطلح (الشرق) مصطلحاً ثابت الحدود واضح المعالم، جغرافياً وثقافياً، مما يعني ركوده وتجمده عند نقطة فاصلة في التاريخ، فإن مصطلح (الغرب) ما انفك يتحرك ويتحول، يدني شعوباً وبلاداً، ويقصي أخرى. فإسرائيل غربية، أما تشيلي فلا.

صار الشرق مكاناً قابلاً للعزل والتمييز، أما الغرب فهو مفهوم ينتج نفسه ويتولد من صفته، إنه نظام ثقافي يتكون من منظومة اصطلاحية - ثقافية وسياسية واقتصادية - ومن تحلى بهذه المنظومة فهو غربي حتى وإن كان شرقي الموقع كاليابان. ومن لم يتصف بها فما هو بغربي حتى وإن كان في أقصى مغارب الشمس.

3-9 من هنا صار (الغرب) هو التاريخ وهو الزمن منذ أن كان مصطلحاً دائم التحول والتطور، ويتولد من صفاته ولا ينغلق داخل حدوده. وكل من اراد أن يعيش التاريخ ويجاري الزمن فإنه مضطر لركوب هذه السفينة المتحركة. فادوارد سعيد مثلاً صار مفكراً غربياً لأنه دخل إلى الغرب وتكلم لغته واندمج في الخطاب الغربي. ولم يكن بحاجة إلى ان يستسلم أو ينهزم امام ذلك الخطاب. بل صار عضواً فاعلاً داخل هذا الخطاب من خلال تشريح الخطاب الغربي السائد وتفكيكه. ولو ظل ادوارد سعيد في فلسطين لظل واحداً من تلك الارقام الشرقية المغمورة ولن يكفيه ان ينتقد الخطاب الغربي من خارج الدائرة. إن الناجين هم اولئك الذين يركبون على ظهر السفينة. أما من لم يركب فله الغرق.

وإن كان الفارق بين فلسطين ونيويورك واضحاً فيما بين شرق وغرب، فإن الفارق بين فرنسا وأمريكا ليس بهذا القدر من الوضوح. غير أن الحوادث تشير إلى ان مقدمة السفينة ليست مثل مؤخرتها. ولذا احتاج جاك ديريدا أن يذهب إلى جامعة ييل ثم إلى آرفاين بكاليفورنيا إمعاناً منه بالتغلغل في الغرب وغرب الغرب لكي يكون في مقدمة السفينة وفي رأس المقدمة. ولو ظل على ما كان عليه في فرنسا ولم تستقبله جامعة ييل وتتشكل من حوله جماعة نقدية هناك، لكان شأنه أقل وتأثيره أضعف.

إنه الغرب ذو السلطان صاحب اللغة ومالك التاريخ. الغرب الواحد

في مقابل الشرق المتجزئ، والغرب المتحول في مقابل الشرق الثابت.

ولن يعجز الغرب عن ابتكار المصطلح البديل اذا احتاج الامر إلى ذلك، وحينما تلاقى الاغنياء مع الفقراء، وضعوا للفقر اسما محايدا فسموه بالجنوب، وتركوا الشمال للأثرياء استجابة لميول الجغرافية. أما إذا تعقدت المسائل واختلطت الجهات المكانية فإن كلمات مثل مصطلح (الدول النامية) تحل الاشكال وتحفظ للغرب حقه بالتميز ليكون هو (المتطور) والآخرون مازالوا في طور النمو، وهذا مصطلح فيه ترضية للخواطر، وإلا فإنها تلك الدول النامية أقرب ما تكون إلى سن اليأس منها إلى سن النمو. إنها دول عتيقة بلغت من الكبر عتيا حتى تحشرجت السنون في حنجرتها. ومازالت نامية تنمو ـ في عرف الغرب وفي لطافته اللغوية السخية ـ حتى وإن كان نموها يشبه نمو طفل معوق.

أقول قولي هذا قاصداً أن يكون مقدمة للموضوع الأساس وهو تداخلات الشرق بالغرب، وهو ما سيكون في الحلقة القادمة ـ إن شاء الله..

* * *

10 الغـرب المتشرق

1-10 هكذا[1] صـار مفهوم (الغـرب) مصطلحا متحركا يعتمد على صفاته، وليس على حدوده المكانيـة، بحيث تصبح اليابان واسـرائيل أجزاء من الغرب المصطلح، رغم اختلاف الموقع الجغرافي.

إن الجغرافيـة لـم تعد أساسـاً لتحديد مفهوم (الغـرب) ولـذا فـإن المكسيك لا تجد لها شـفيعاً من موقعها ليجعلها غربيـة. إنه الشـرق وحده الذي ظل حبيس الحد الجغرافي.

تلك هي الصورة الظاهريـة. ولكن هل سـارت الأمور على هذه الحال، بمعنـى هل ظل الغرب نقيـاً ومتطهراً من الشـرق..؟ بحيث نقول إن القمقم ظل محبوسـاً في الجـرة، وتـم إغـلاق الأبواب مـا بـين الشـرق والغرب مثل اغلاق ذي القرنين على (يأجوج ومأجوج).

تلك كـانت أمنيـة الشـاعر كبلنج بكل تـأكيد، وتجاريها محاولـة شـرقية فذة ببناء سور برلين الذي به تحصن الشرق من الرياح الغربية.

ولكن كبلنج مـات، وسـور برلـين تحطم علـى رأس بانيـه. ومثلمـا غزا

(١) إشارة إلى الحلقة الماضية (رقم تسعة).

الغـرب بلـدان الشـــرق بجيوشـــه وبأفكـاره فـإن الغـرب أيضـا قـد تعـرض لتسـللات شـرقية، أولهـا (الف ليلـة وليلـة) ذلـك الكتـاب الـذي دخل الى كل رأس غربـي مثـل دخـول النفـط الشـــرقي في خزانـــات ســـياراتهم، وليـس للأمثلة من آخر.

ولكن لنقف عند بريطانيا كمثال على تشريق الغرب وتغريب الشرق.

2-10 من بعـض أسـاطير العرب عـن العنقـاء أنهـا طـائر عملاق ـ إذا فـرد جناحيه وطـار غطـى على الشـمس وحجبهـا. وكذا كـان لبريطانيـا في بعض عهـود عزهـا القريب. لقد فردت جناحين عملاقين امتد أحدهما الى الغرب فغطى أهم بقع الدنيا الجديدة وأغناها. وامتد الجناح الآخر شرقا فغطى أعز بقع الشرق وأثراها تاريخا وخيرات. وبذا لـم تستعمر بريطانيا الأرض فحســب، ولكنهـا صـارت تـرى نفســها وقـد اســتعمرت الشــمس واحتكرتها لها خاصة، حتى صارت لا تغيب عنها.

كـان ذاك مشــروعاً بريطانيــاً خارقـاً امتلكـت فيـه بريطانيـا الشـمس واحتكرتها لنفسـها بعد حرمان طويل من الشمس. وصارت مدينة الضباب والغيوم والمطر المستديم عاصمة لامبراطورية الشمس ومالكتها والمسيطرة عليها. إنها الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

هكذا كـانت بريطانيـا في عهدهـا الزاهـر البـاهـي. الـى أن طلع عليهـا فتـى مغـامر اســــمه جورج واشـــنطن رجل عـادي (ACommon man) حسب وصف الملك جورج الثالث.

وجاء هذا العـادي من عامـة النـاس ليتحدى الملـك في ملكـه ويكسـر أخيراً جناح الطائر العملاق. كسر الجناح الغربي. وفصل بعض الغرب عن الغرب واختلت بذلك كفة الميزان، ومال الطائر بجسده كله باتجاه الجناح المتبقي. ومن هنا وضعت بريطانيا ثقلها على الشرق وبدأت بالتشريق.

3-10 فرحت بريطانيا بهذا التشـريق،ورأت أن مملكة الشمس تغنيها عـن بريق الغرب المفقود. ولقد جاء الشرق على بريطانيا بكل ما تملك يده من ثـروات بمـا في ذلك مجوهـرات التاج الملكي، وأيـادي الآســيويين التي أبلت بلاءً شـرقياً في حفـر معابر قطـارات لندن التحتية (Under Ground) وتكسير صخور منـاجم الفحم، ومن غير الشـرقيين أهل لهذه، حفاظا على ياقات السادة الانجليز من أن يتسخ بياضهـا الناصع بسواد الفحم أو طين

مغارات لندن المتعفن بالرطوبة والندى، طين لم ير الشمس فجاءه المشمسون كي يزيحوه عن طريق السادة البيض لتعبً قطاراتهم في الأنفاق النظيفة التي تتحدث عن استعباد الضباب للشمس.

ويتوج ديزريللي فرحة بلاده بأن يمنح الملكة فكتوريا لقب امبراطورة الهند.

لقد فرحت السيدة العجوز فرحاً عظيماً بهذه الهدية من رئيس وزرائها، وأحبت الوزير الاول هذا حباً عظيماً الى درجة أنها لم تفهم كيف امتنع الناس عن التصويت له في الانتخابات ولم يجددوا ولاية هذا الرجل الحبيب، ووضعوا بدلاً عنه منافسه البغيض الذي لا تطيق الملكة رؤيته.

ولكن الملكة الامبراطورة لا تجلس دون سلوى تلهيها عن فقدان وزيرها، لقد جاءها من الهند هدية طريفة وعجيبة. هي مشروب داكن يسمونه الشاي. ولقد وضعت الملكة شيئاً من هذا السائل في كأس وحاولت تذوقه، ولكنها وجدته مراً وحاداً. ولم تستطع الحنجرة الملكية أن تمرر هذا الداكن المر. لقد كان مرور القطارات عبر أنفاق لندن التحتية أسهل من مرور هذا السائل الشرقي عبر الحنجرة الملكية. والمعجزة الآسيوية في الأنفاق قصرت دون عبور هذه الحنجرة.

ولكن الملكة كانت من الحصافة الى درجة تمكنت معها من حل المشكل، لقد أضافت قليلاً من الحليب الانجليزي الأبيض الصافي الى ذلك السائل الشرقي فتحول الداكن المر الى (أشقر) حلو. لقد صار وجهاً انجليزياً وقد كان من قبل آسيوياً يشبه أهل الشرق بسمرتهم ومرارة أحوالهم.

أما وقد صار أشقر حلواً باضافة قليل من الحليب إليه، فإنه بذا تحول الى مشروب ملكي، ثم أصبح مشروباً وطنياً يتعاطاه الانجليز بوصفه شاياً انجليزياً وليس شاياً آسيوياً، ودخل في حناجر الانجليز وفي ساعات يومهم. يقسم اليوم الى ساعات للشاي وآخر للعمل.

لكن هذا السائل الأشقر ينطوي في داخله على الداكن المر. أي أن الشرق ظل مختبئاً تحت الجلد مثل اختباء النار تحت الرماد. وجاء الداكن المر تحت اسم جديد هو (غاندي) ليفعل ما فعل جورج واشنطن، ولكنه هذه المرة لم يتقدم بجيوش وعساكر وإنما اكتفى بالتسلل عبر الشاي حيث يعبر الحناجر بيسر وسهولة الى أن يتمكن من داخل الجسد ويبدأ بالمقاومة

الخفيفة ولكنها مقاومة تطرد النوم من العيون فيأرق الجسد ويتعب من قلة النوم. والسبب هو هذا السائل الشرقي الذي يتسلل بواسطة الحليب فيختبيء الأسمر تحت الأشقر يفعل فعله بالتنبيه ومداومة الايقاظ.

وهكذا انكسر الجناح الشرقي وعادت بريطانيا أدراجها عبر السويس لتغيب عنها الشمس مرة أخرى وتدخل في ضباب يكلل عاصمتها ويطوقها ببياض لا ينقشع عن شمس وإنما يضخ الرطوبة لتتعفن الشوارع والأجساد.

ومشت بريطانيا متجهة غرب السويس لتنظر خلفها بغضب حسب مسرحية جون أوزبورن التي سجلت لحظة التحول والانكسار.

ومع هذا الانسحاب عادت بريطانيا الى أرذل العمر. وصارت تعاني من أمراض الشيخوخة. تلك الأمراض التي يعرفها الشرقيون منذ زمن طويل. مرض العين البصيرة واليد القصيرة.

وهكذا تشرقت بريطانيا. كان دخولها الى الشرق امعانا في التغريب حيث أمدها الشرق بما تريد لتكون دولة عظمى. ولكن خروجها من الشرق . ويا للمفارقة - جعلها تتشرق حيث أشبهت حالها حال الشرقيين، حال الأسمر الداكن، وبذا صار الشرق يتمدد خارج حدود الجغرافية ليمنح صفاته للآخرين: العين البصيرة لليد القصيرة. وقصرت يد بريطانيا مثلما قصرت أياد أخر - أيضاً - للامبراطوريات الأوروبية، فرنسا وايطاليا ومن قبلهما اسبانيا والبرتغال وألمانيا وهولندا. ولحقت بها ممالك الكتلة الشرقية بانهيار سور برلين ومعه الكرملين.

ولما قصرت أيادي هؤلاء طالت يد أمريكا ومن ثم اتسعت عينها وانفكت عقدة لسانها لتصبح المطاع المتفرد: Order Order Order.

ويتمركز الغرب أخيراً في ثلاثة حروف هي U.S.A وما عداها صار شرقاً - حقيقياً أو مجازياً - يأتمر بأمر السيدة ويرى ما تراه فيحب ما تحب ويكره ما تكره.

ويبقى أن نقول أو نتساءل كيف حاولت أمريكا أن تتخلص من التشريق، وهل نجحت في ذلك..!

ذلك هو موضوع الحلقة القادمة - إن شاء الله.

* * *

11 الاغتسال الغربي

11-1 دخل الشرق الى بريطانيا وتغلغل فيها مثل تغلغل الشاي عبر حناجر الانجليز، وصارت بريطانيا مجتمعاً شبيها بالمجتمعات الشرقية حيث المجد الغابر يقابله حاضر صعب ومستقبل مضطرب.

ولقد كان الشاي طالع انكسار على الانجليز. ومنذ أن أدمنوا تجرع هذا السائل الشرقي في زمن فيكتوريا - ملكة بريطانيا وامبراطورة الهند - وهم في تراجع متواصل حتى صاروا مثلنا: بعيون بصيرة وأيد قصيرة.

وبما أن للشاي هذا المفعول التقويضي فإن أمريكا تعاملت مع هذا السائل الشرقي تعاملاً يحميها من الشرق ومن سوائله فجمدت هذا الشاي وأخذت تتعاطاه مجمداً (Ice Tea) لكي تبطل مفعوله وتقضي على سحره وتخلصت بذلك من (حرارة) الشرق، ومن (مرارته).

على أن تاريخ أمريكا مع الشرق وتاريخ حماية نفسها منه يعود الى زمن الاكتشاف والغزو. إذ إن كولومبوس لم يطأ أرض أمريكا إلا بعد أن غسل يديه ورجليه وذاكرته من كل ما يمت الى الشرق بصلة. ولقد كان عام 1492، هو عام الاغتسال الأوروبي الأكمل من عوالق الشرق وبقاياه حيث تولت اسبانيا المسيحية طرد المسلمين واليهود من شبه الجزيرة

الايبيريـــة، وتطهرت اســـبانيا بذلـك عرقيـاً ودينيـاً وثقافيـا مـن الشـــرق وعوالقــه. ومن هنـا جـاء كولومبوس بوصفــه ذلك الرجـل الغربـي خـالص الغربية. ومعه حفنـة من الرجال كـاملي الغربيـة ودخلوا الـى أمريكا لينقلوا الغـرب النقي الصـافي الـى داره الجديدة حيث يبـدأ مجداً جديدا لا تشـوبه شوائب الشرق ولا تخـالطه أمشاج العالم العتيق ولا أوهـامه.

ولكن هذا الغرب النقي اصطدم ـ أخيراً ـ بشرق من نوع غريب، شرق يتمثل في فئات بشـرية عجيبـة، سمـاها كولومبـوس بـالهنود الحمـر، وكأنها الشاي الشرقي الذي عرفه الانجليز في آخر أمرهم.

غـير أن الفـاتح الغربـي لا يـترك مجـالاً للمفاجـآت ولا للاحتمـالات ويشـرع من وقت مبكر في تطهير مستوطناته الأمريكيـة من هـذه الاجناس البشـــرية ذات المســمى الشــرقي، وتبـدأ هنـاك في الدنيـا الجديـدة ملاحم مشـهودة للرجل الأبيض أبلـى فيها بـلاء لا مثيل لـه في تاريخ الفتوحات، من اجل التخلص مـن الاســمر والأحمر كـي يصفو المقـام لـلرجل الغربي النقي الخـالص النقـاء.

ومن هنا فإن امريكا كانت هـي الصفحة الاولى في كتاب المجد الغربي الخـالص، وكـان اكتشـافها واسـتيطانها هو النتيجـة الأولى والثمرة الطريـة للاغتسال الإسباني الكبير لتطهر أوروبا من الشرق وتخلصها منه.

2-11 إن كـانت أمريكـا هـي ثمرة الطهـارة، طهـارة اوروبـا مـن الشـرق، فما هـي هذه الأرض عند مكتشفها..؟

في رسـائل كولومبوس إلى البـلاط الاسبـاني كانت امريكـا تبدو عنده علـى أنها عذراء /بكر/ مغرية/ مثيرة. وتظهر غـامضـة / سـاحرة كلها كنوز من الذهب والذهب والذهب. ومن العبيد والنسـاء.

وكـان يراهـا هدية ربانيـة إلى اسـبـانيا المسيحية، هـذه العذراء البكر صـارت معشوقة تاريخيـة، لها فارس أول، هو الرجل الأبيض المسيحي يغار عليهـا من نسـمة الهـواء ومن الأشـرار ذوي الألوان الاخـرى غير البيضـاء. وكـان كولومبوس ينطلق من شعور قاطع بأنـه يحمل تكليفا إلاهيا بأن يضم هــذه الديـار إلى ممـلكة الـرب، كما قـد لاحظ تـودوروف في كتابـه الفـذ عن (فتح امريكا).

وبذا فـإن المسـيحي النقي التقـي قد عثر على (العذراء). ويكفينـا أن

نضع هذه الصورة المجازية في الاعتبار لنتصور أي علاقة ستنشأ، حينئذ . بين المكتشف والأرض. ونتصور موقفه من الآخر المنافس.

إنهاء علاقة دين وعلاقة عشق

3-11 لن يصعب علينا ان نتصور كولومبوس بعد ان عثر على (العذراء) ولسوف نحدس ونتخيل كيف راح هذا البحار يتصور هذه الهدية القدرية.

لقد كان ينوي غزو الشرق من الخلف ولكنه عثر على شيء لم يخطر على بال بشر من قبل.

وكولومبوس رجل فلكي جغرافي مطلع. اطلع على كل كتب الأقدمين في الملاحة والجغرافية. ولم ير قط في أي منها أي ذكر أو إشارة لهذه القارة.

لقد كان يبحث عن مكان معروف وعن مكان قديم، فوجد ما لم يعرف ومالم يخطر على بال أحد من قبل.

من هنا جاءت (العذراء) وجاءت (المعجزة). وجاء الحس الالهي في الاكتشاف.

ولذا فإن كولومبوس أعاد صياغة العالم في ذهنه ورسم خارطة جديدة للكون. وجعل صورة الأرض على هيئة كرة مستديرة جداً. ولكن على جزء منها يوجد شيء كحلمة امرأة، وان هذا الجزء حيث يوجد هذا النتوء هو الجزء الاعلى والأقرب إلى السماء. (ورد ذلك في رسالة منه إلى البلاط الاسباني بتاريخ 1498/8/31، أشار إليها تودوروف في كتابه).

وإن كولومبوس لم يقل إن تلك الحلمة هي أمريكا تحديداً إلا أننا نستطيع أن نضع صورة (الحلمة) بازاء فكرة (الأعلى والأقرب إلى السماء)، حيث تأتي (العذراء) بكامل صفاتها ـ تكون الأرض أنثى وأوروبا هي النهد بينما امريكا هي (الحلمة).

وهذا هو تاريخ الهجرة الانسانية حيث تبدأ الرحلة من الشرق بوصفه الجسد الأول والجسد الأصل، وتكون أوروبا هي التتويج الأول لتغريبة الحضارة، هذه الحضارة التي تبرز مثل حلمة فوق نهد باسق ويتدفق الحليب وتنضج الانوثة. هذا الأعلى والأقرب إلى السماء يترجم

نفسه أخيراً في ثلاثة حروف هي: U.S.A

هي العذراء النقية مع عاشقها وفارسها، الرجل الأبيض وهنيئا لكولومبوس ما شربه من حليب وهنيئاً لأحفاده ما اصطفوه لأنفسهم من نقاء وصفاء تخلصوا فيه من (الشرق) اولا في اسبانيا، وثانيا في تغريبته التي اخذتهم إلى سواحل المكسيك بعد تطهيرها من الأزتيك.

* * *

12 عقدة الشرق

12-1 يبدو الغرب وكأنه يعاني من عقدة عميقة وقديمة اسمها (الشرق). وكأن عملية التطهير الكبير التي مارستها اسبانيا ضد بقايا الشرق فيها عام 1492 بطردها للمسلمين واليهود لم تكن لتكفي لتخليص الغرب من الشرق. ولقد انطبع الاستيطان الامريكي بصراع دائم ضد السكان الاصليين مذ كانوا هنوداً حمراً وكأن صفتهم ومسماهم الشرقي هو الذي حرك كراهية المهاجرين الغربيين ضدهم.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية تجدد هاجس امريكا ضد الشرقيين فصارت الحادثة المشهورة حيث تولت السلطات الامريكية حجز كل الأمريكيين ذوي الأصول اليابانية وتم سجنهم ومحاصرتهم في معسكرات مطوقة في مزارع كاليفورنيا.

كل ذلك صار بسبب الخوف من هؤلاء الشرقيين على الرغم من كونهم مواطنين أمريكيين وعلى الرغم من ان بعضهم قد استقر في أمريكا منذ ثلاثة أجيال.

وفي مقابل ذلك فإن الأمريكيين ذوي الاصول الالمانية او الإيطالية ظلوا مواطنين أحراراً ولم يتعرضوا لأي شك في اخلاصهم أو في وطنيتهم.

وبهذه المعادلة يتضح أن الغربي هو الأصل وأن الشرقي هو الدخيل. ومن هنا فإن أمريكا تعلن عن نفسها بوصفها وطناً غربياً والمواطنة فيها ليست سوى تأكيد ثقافي وسياسي للغرب ضد الشرق. ولن يكون الشرقي غربياً مهما أظهر من حسن النوايا، ولسوف يلاحقه أصله الشرقي مهما حاول الفرار منه جغرافياً وزمانياً.

2-12 ولئن كنا قد رأينا أمثلة من تعامل الغرب مع الشرق الذي في داخله (مع الهنود الحمر ومع اليابانيين، وكلهم أمريكيون من حيث المواطنة) فإن الغرب لايعجز عن ابتداع طرائق ذكية ومبتكرة في محاربة الشرق الخارجي. من ذلك ما فعلته أمريكا في تعاملها مع الروس. وكانت اولى وسائل تدجين هذا الخصم هي بانطلاق المصانع الأمريكية بابتكار طريف حولت فيه (الدب الروسي) إلى لعبة حيث مسخت هذا الدب الأبي إلى صورة وديعة هي التيدي بير (Teddy bear) وصارت هذه الصورة لعبة بيد كل طفل أمريكي يفعل بها ما يشاء. لعبة تشترى وتباع وتهدى مثلما يتم اللعب بها والتلاهي معها وتسخيرها لتسلية الطفل بما أنها دمية مطواعة تخضع لارادة صاحبها وتستجيب لمبتغاه. ومازالت هذه حال الدب الروسي لدى الأمريكيين إلى أن سقط الدب الحقيقي في الكرملين وصار مصيره مثل مصير الدمية، واكتسب المجاز معنى دلالياً حقيقياً حيث صارت أمريكا تلعب بالدب الروسي حقيقة ومجازاً وفي هذا استدعاء للسلاح البدائي حينما كان السحرة يرسمون صورة الخصم ويسقطون عليها ما شاؤوا من عقاب تقديراً بأن ذلك واقع عليه حقيقة، وبذا تكون أمريكا ساحرة جديدة استطاعت أن تسحر خصمها الشرقي فجعلته لعبة مسخرة بيدها، تأتمر بامرها وتنصاع لرغباتها وترتاح أمريكا بذلك من أحد وجوه عقدة الشرق.

3-12 ولكن هل ظل الشرق من داخل أمريكا سلبياً..؟ وهل قبل أن يكون مادة مطواعة تستجيب لتصورات الغرب عنها..؟

عندنا عن ذلك امثلة تصور حال الشرق في داخل الغرب وهذه الامثلة هي نعوم تشومسكي وادوارد سعيد من جهة، وفؤاد العجمي وفرانسيس فوكوياما من جهة ثانية.

تشومسكي يهودي من شرق أوروبا، وسعيد عربي من فلسطين، وكلاهما صار أمريكياً بالجنسية واللغة والثقافة، ولكن أمريكيتهما لم

تمنعهما من رؤية الصورة من كل جوانبها، وكتاباتهما تكشف عن رؤى نقدية جادة حول الخطاب السلطوي الأمريكي. وهو خطاب ينطوي على نوع من (النفاق الاخلاقي) ويضمر دكتاتورية مبطنة تختفي من وراء جلد الديمقراطية المصرح بها: هكذا يقول تشومسكي في كتاباته السياسية عن أمريكا، ولا تختلف كتابات ادوارد سعيد عن ذلك في كشفه لخبايا الخطاب الغربي وتضميناته الكامنة في تصوره للآخر وفي تعامله معه، والآخر هنا هو (الشرق) بينما الذات دائماً هي (الغرب).

وكتابات ادوارد سعيد عن الاستشراق الغربي تكشف عن صورة للشرق لدى الانتلجنسيا الغربية تظهر الشرق وكأنه خرافي. وبما أنه كائن خرافي فإن تفسير هذا الكائن ومحاولة فهمه تحتاج إلى تصور خيالي وليس إلى تعامل واقعي. وبذا فإن الشرق يمثل الغياب واللاوجود والموت والفراغ. وهذه الصفات تعني أن الغرب بالضرورة هو الحضور والوجود وهو الامتلاء وهذه معادلة تفضي بالسياسي الغربي إلى أنَ يستجيب للموحيات الثقافية التي يوحي بها الخطاب الفكري ويكون من حق الغرب - بل من واجبه - ان يكون وصياً على هذا القاصر، ولسوف تكون هذه المهمة أخلاقية وحضارية.

أو لم نر النظام العالمي الجديد..؟

أو لم نر - من قبل - ونسمع عن المهمة الحضارية لأوروبا..؟!

كل ذلك جعل كلمة (الشرق) ليست مجرد (اشارة) بل انها (أكثر) من إشارة - كما يقول ادوارد سعيد - إنها تحميل ثقافي أدى إلى ناتج سياسي وسلوكي معقد. وتحكم ذلك في علاقة الغرب مع الشرق وزادها تعقيداً.

4-12 ويأتي العجمي وفوكوياما على الصفحة المقابلة لصفحة سعيد وتشومسكي. الأول عربي من جنوب لبنان والثاني ياباني. وكلاهما صار أمريكياً من طراز خالص الاغتراب. الأول صار صوتاً اعلامياً للسياسة الأمريكية خاصة في احتكاكها مع الشرق. إنه يتكلم باللغة التي يطلبها منه الخطاب الاعلامي السائد. ولذا تظهر صورته ويتردد صوته بعد كل حدث يحدث في الشرق الأوسط، ويقول للأمريكيين ما يودون سماعه ويطمئن ضمائرهم بأن سياستهم مع الشرق هي السياسة التي يفرضها الواقع ومن ثم فإنها عمل أخلاقي وتاريخي صحيح.

أما الثاني فإن كتابه عن نهاية التاريخ يجعل (الديمقراطية الليبرالية) بوصفها طبخة غريبة هي غاية المطاف البشري. وهي الذروة التي ينتهي عندها التاريخ ويستريح من مشواره الطويل. ويكون الغرب هنا هو الإنسان وما عداه لما يزل يحبو في طفولة لن ينمو منها إلا بأن يتغرب مع الغرب.

ومرة أخرى نرى صورة أمريكا على أنها (الحلمة) البارزة فوق نهد الكرة المستديرة. صورة رسمها كولومبوس وكررها فوكوياما. مع فارق بين الاثنين. فالأول غربي نقي الأعراق، ولذا صار له من الأحفاد ما يكفي لقيام امبراطوريات غربية باسقة تزداد عدداً وقوة وتغريباً. اما فوكوياما فإن عرقه الياباني سوف يظل يلاحقه. ولو كان راشداً أثناء الحرب العالمية الثانية لوجد نفسه أسيراً في أحد مزارع كاليفورنيا ولن يشفع له كتابه عن نهاية التاريخ. إن العرق الشرقي دساس. والبادي على الغرب أنه قد تعلم درساً لا يحيد عنه وهو ان الشرق خطر لابد أن يتقى. ولذا فإن تشومسكي يعلن دائماً عن معاناة متواصلة يعانيها من حرمانه المستمر من وسائل الاعلام الجماهيرية. هذه الوسائل التي تستضيف فؤاد عجمي استضافات متتابعة قد تكون أكثر من مرة في اليوم الواحد، في حين أنها تتجاهل وجود تشومسكي ولا تتفطن له أبداً. وماذاك إلا لأن العجمي يتكلم بلغة السيد بينما تشومسكي يرى ما لا يراه العم سام.

هذه عقدة ما زال الغرب يعانيها من الشرق، رغم التطهر والتطهير التاريخي ويبدو أن الطهارة تحتاج دائماً إلى التجدد كيلا يصيبها الدنس مرة اخرى.

* * *

13 الزواج الدامي

13-1 الزواج الدامي عنوان مسرحية للشاعر الإسباني فريدرك جارسيا لوركا تدور المسرحية حول زواج دموي حيث انتهى حفل الزواج بمقتل العريس على يد ابن عم العروسة. وتمضي المسرحية بعد حادثة القتل لتصور الأم التي ثكلت ابنها وقد ثكلت والده من قبله وفقدت كل أفراد أسرتها الذكور بحوادث قتل مماثلة. ولقد ظهرت الأم بعد حوادث الموت هذه، وخاصة بعد الحادث الأخير ظهرت وكأنها قد أزاحت عن رأسها حملاً ثقيلاً، فلقد كان خوفها المتواصل على ابنها الوحيد يعذبها ويثقل حياتها بالهواجس والوساوس، أما وقد مات ابنها الوحيد فقد صارت حرة من مخاوفها وهواجسها ولم يبق عندها ما تخاف عليه.

وكأني بأمريكا وقد صارت مثل هذه الأم. ذاك لأن ذاكرة أمريكا تنتمي تاريخيا إلى العالم القديم، وهو عالم مليء بالمعضلات ومكدس بالأحداث والمفارقات. وصورة هذا العالم القديم لما تزال تلاحق أمريكا بأعبائها وهمومها ومخاوفها.

فهي مثل الأم في مسرحية لوركا، حاملة هم ومولدة قلق. وكما هو الحل عند لوركا فإن أمنا أمريكا لن تجد لنفسها من راحة إلا بعد موت

الابن وحينئذ تنتهي أسباب القلق.

من هنا فإننا نجد أن أطول استمارة في أي سفارة معاصرة هي استمارة طلب تأشيرة الدخول لأمريكا. وفي هذه الاستمارة تجد أنواعا من الأسئلة. أسئلة عن ماضيك وأسئلة عن نواياك، ومعها أسئلة أخرى تدور حول صحتك الجسدية وحول صحتك العقلية. أسئلة عن أي مرض معد وعن أي فكر معد. مثل الإيدز أو عضوية الحزب الشيوعي. ولابد أن تجيب عن السؤال بجواب قاطع: نعم / لا. ولن تدخل أمريكا إذا لم تجب على السؤال. ولقد حاول جورج اورويل الروائي الإنجليزي أن يتلافى سؤالاً عما إذا كان قد سبق له الانضمام إلى الحزب الشيوعي في أي فترة من ماضي حياته، فكان جزاؤه ان حرم من تأشيرة الدخول إلى أمريكا لأنه رفض الإجابة على هذا السؤال، ولم تشفع له رواياته ولا سمعته الأدبية، ولا تعريته للتجربة الشيوعية في روايته الرمزية (مزرعة الحيوانات).

هل هذه الاستمارة مشروع وقائي للتخلص من العالم القديم بأمراضه الجسدية والفكرية..؟ وهل هي مشروع جديد لتطهير الغرب وتنقيته، ولكنه هذه المرة لا يقوم على طرد المسلمين واليهود كما فعلت إسبانيا المسيحية وإنما يقوم على التحصن الوقائي المبكر ضد عدوى العالم القديم وعلله المستحكمة!!!

13-2 إن كانت أمريكا قد مارست لعبة الحصانة والتطهر فهذا يعني أنها ـ فعلاً ـ قد أفلحت في تطهير نفسها وتنقية أرضها من الأبناء العاقين. إن الطهارة الخارجية لا تعني بالضرورة بقاء الجسد داخليا. وهناك أمامنا تجارب ثقافية لأناس كان بيدهم أن يكونوا مواطنين أمريكيين طاهرين، ولكنهم رفضوا هذه الطهارة وطلبوا البديل القديم.

من هؤلاء الشاعر ت.إس.إليوت، الذي ولد أمريكيا ونشأ أمريكيا، ولكنه هاجر عائداً إلى العالم القديم وسلك طريقه مخالفا مسار الشمس ومعاكساً للسير التاريخي ولقوافل المهاجرين والطامحين.

لقد عاد قافلاً باتجاه الشرق حيث استقر في (بريطانيا) بين أحضان العجوز. لقد اختار العجوز وفضلها على الشابة اللعوب.

عاد باحثاً عن الكلاسيكية ـ وإن كان زعيم الحداثة ـ وأعلن انتماءه إلى الجذور الأصلية (القديمة) ممثلة بالدين المحافظ واللغة الملتزمة،

وتطلع إلى مستقبل أدبي يحقق للغة الإنجليزية مجدها بأن تصل إلى مستوى سماه إليوت المستوى الكلاسيكي، وهي درجة يرى اليوت أن الأدب الإنجليزي لم يبلغها بعد. أي أنه يتمادى في الهجرة المعاكسة، الهجرة نحو القديم.

هذا أمريكي فر من حضن الدنيا الجديدة إلى حضن العجوز، وليس على مثاله كان الشاعر الاسباني لوركا الذي ذهب في أواخر عشرينات هذا القرن إلى نيويورك. وكأنه يعيد حركة جده القديم كولومبوس مهاجرا من غرناطة إلى غرب الذهب والحلم، ولكنه لايفعل مثلما فعل جده إذ يكتفي لوركا بإقامة مبتسرة لاتزيد عن السنتين، ويعود بعدها متجها إلى داره في غرناطة، ولكنه لا يصل إلى مسقط رأسه حيا، ولم تستقبل منه غرناطة إلا جسداً مكللاً بالدم والموت. لقد قتله ابن عمه ومات الشاعر في زواج دام مثل بطل مسرحيته.

أما تجربته في أمريكا فقد كانت غزوة فاشلة وفتحاً مغلقا على عكس فتوحات جده كولومبوس. لقد كانت فجراً لم يتمخض عن نهار. وهذا هو موضوع قصيدته عن (الفجر) وهي قصيدة كتبها عام 1930 م عن فجر نيويورك ذي الأعمدة الطينية والطيور السود. هو فجر يضخ حزنا وكآبة، ولذا فإنه فجر لا يستقبله أحد إذ إنه فجر ليس فيه صباح وليس فيه رجاء. هناك الطين فحسب. أما النور فإنه مطمور تحت ضجيج المدينة، بينما يترنح المؤرقون وكأنما قد لفظتهم للتو سفائن الدم المحطمة.

هذه فقرات من قصيدة لوركا، مأخوذة من ديوانه شاعر من نيويورك (1929 ـ 1930 م)، وهي فقرات تكشف عن صورة أمريكا عند هذا الشاعر، وكم هو الفارق كبير بين هذه الصورة وتلك التي كان كولومبوس يرسمها في رسائله إلى البلاط الإسباني، حيث صورة العذراء والفردوس الأرضي بذهبه وطبيعته (وعبيده وجواريه).

ان كان كولومبوس قد اكتشف الفردوس الأرضي في أمريكا فإن لوركا لم يجد في فجر نيويورك فردوساً ولا حلماً. ومن هنا فإن النقاء المفترض والطهارة المرغوبة لم تلح أمام أعين الشاعر الإسباني الذي رأى الطين ولم ير الذهب ورأي الطيور السود ولم ير الجواري الفاتنات، ورأى الدم ولم ير النور.

هذه صورة من صور أمريكا في ذهن شاعر أوروبي، وهي صورة

قاتمة ولا ريب، ويقابلها صور لا تحصى ترسمها خيالات المحرومين من أبناء العالم القديم، سوف أتعرض لبعضها في وقفات لاحقة - إن شاء الله.

* * *

14 التشرق

14-1 طرح الروائي الأمريكي فورفيدال حكاية مثيرة ضمن رواية ضخمة عن جندي أمريكي اسمه جيم كيلي كان أحد المشاركين في حرب فيتنام. وقد تلبست هذا الجندي بعض الأرواح الشرقية، وعاد من الشرق محملاً بهذه الأرواح، فراح يعلن أن روح فيشيسنو، أحد قديسي الهندوس قد تلبسته وأعلمته بموعد نهاية العالم في يوم محدد. وحينما حل الموعد اجتاح العالم وباء عظيم قتل البشر وأفناهم ما عدا خمسة أشخاص هم جيل كيلي وزوجته التي سوف تنجب له أطفالاً من العرق الآري النبيل، وبقي معهم ثلاثة رجال حكماء، ولقد بقي هؤلاء الحكماء من أجل وظيفة محددة، وهي تعليم أطفال كيلي وتربيتهم.

وبعد أن خلا الكون لكيلي وأسرته فإنه ينتقل مرتاحا ومبتهجا إلى البيت الأبيض بواشنطن العاصمة منتظرا ولادات زوجته لأطفالها الآريين المصطفين. ولكن زوجته لا تنجب له ما تمنى وإنما تلد له أطفالا معوقين، ويكتشف عند ذلك أن الروح التي تلبسته هي روح (سيفا) الهندوسي الشرير وليس روح فيشيسنو الحكيم. ويكون كيلي حينئذ قد تسبب في إفناء العالم ولم يتحقق له ماتمناه من بناء جنس عرقي طاهر. ويكون الشرق بذا قد لعب في عقل هذا الفتى الغربي إذ جعله ضحية لرغباته

العميقة في النقاء والصفاء العرقي والثقافي.

لا بد أن فور فيدال كان واعياً بمشكلة أمريكا مع (الآخر) ويعي توجس أمريكا من أمراض العالم القديم، ومن هنا فإن جيم كيلي صار ضحية سهلة لأنه باع نفسه للأرواح الشرقية مثله مثل فاوست حينما وقع في حبائل الشيطان وباع نفسه إلى إبليس في مسعاه لكشف أسرار الحياة.

ويبدو أن الثقافة الغربية ترى وتعتقد أن إبليس مخلوق شرقي، يتلبس في أسماء وهيئات متنوعة، ولذا تحرص السياسات الغربية على تسمية إبليس في كل تجلياته الممكنة. ويبدع الخطاب الإعلامي الغربي في مساعدة السلطة السياسية بأن يكشف عن تقنعات هذا الشيطان الذي ربما يأتي تحت مسمى الماركسية أو الإرهاب أو التطرف، أو غير ذلك من الحيل الشيطانية التي يظل إبليس يبتكرها ويتستر تحتها لكي يخادع الغرب ويتحايل عليه.

ولكن الغرب يعي هذه الألاعيب جيداً وتجربة فاوست ثم جيل كيلي جعلت الغرب لا يلدغ من جحر ثلاثين مرة. وكانت تجربة مكارثي في كشف الشياطين في أمريكا عملاً مشهوداً ومشروعاً تطهيرياً هو بمثابة صيغة حديثة لمحاكم التفتيش الإسبانية ولكنها صيغة أكثر تحضراً وتمدناً بشكل يليق بمجتمع حديث لا علة فيه سوى أنه يرغب في تطهير نفسه وتنقيتها من وساوس الشياطين وشرورهم.

ولذا فإن سؤال أي طالب لتأشيرة دخول إلى أمريكا عما اذا كان شيوعياً أو قد سبق له أن كان شيوعياً في أي يوم من ماضيه أو إن كان مصاباً بمرض الايدز، هو سؤال مشروع لأنه وقائي يحمي أمريكا من إبليس فاوست ومن روح (سيفا) الشرير، ومن حق كل مجتمع - أي مجتمع - أن يحمي نفسه من كل شر ممكن أو متخيل.

ولكن ماذا لو جاء إبليس على صورة فكرة أو على صورة لوحة فنية...!؟ وليس على صورة بشر أو عبر أرواح.

لقد وجدت أمريكا نفسها يوماً ما في مواجهة مع الشيطان متمثلاً في لوحات فنية رسمها الفنان المكسيكي دييجو ريبيراً على جدارية في مركز روكفيللر في قلب مانهاتن سيتي في مدينة نيويورك. وثار جدل كبير حول هذه الرسوم وما يمكن أن توحي به أو ترمز إليه من دلالات، وخاصة أن الرسام متهم بالماركسية. واستمر الجدل إلى أن أزيلت الرسوم من

جداريتها، وبقي مركز روكفيللر سليماً معافى من الأرواح الشريرة التي تتربص به الدوائر من بين الجدران، ولكن المركز لا يبقى على عافيته تلك مدى طويلاً إذ تعفرت طهارته الغربية واختلط صفاؤه الغربي بالسيولة الشرقية حيث اشترته أخيراً الأموال اليابانية، وصار عقاراً شرقياً في قلب المدينة الغربية.

كيف حدث هذا... ؟ كيف ضاع المركز من أيدي الغرب ووقع في أحضان الشرق..؟ هل تلبسته روح شرير مثلما حدث لجيم كيلي ..؟!

لعل رسوم دييجو ريبرا قد فعلت فعلها السحري، فطيرت المبنى من أصحابه إلى أيدي الشرقيين.

يحكي غابرييل غارسيا ماركيز في روايته (مائة عام من العزلة) حكاية طريفة حول خطر التصوير على البشر، وهو خطر أصاب أحد شخوص الرواية بالذعر الشديد، إذ إن حياة الإنسان تتناقص تدريجياً على أثر تحولها إلى صور محفوظة في لوحات معدنية. هذا ما يعتقده خوسيه اركاديو بوين ديا، الرجل المذعور خوفاً من تلاشي جسده بعد أن حصدته الكاميرا بوهجها السحري.

هذه حكاية تتجاوب مع ما تعتقده بعض القبائل الأفريقية من أن التصوير الفوتوغرافي يسرق الروح من الجسد.

فهل يا ترى استطاعت رسوم ريبيرا أن تسرق روح مركز روكفيللر وتطير بها نحو الشرق ؟!

2-14 لا أحد يشك في حب الأمريكيين لبلادهم، ومن هذه المحبة تأتي جهود التحصن والوقاية. وقد نجد ـ نحن الشرقيين ـ أموراً كثيرة تثير الإعجاب في التجربة الأمريكية وتغري بالمحاكاة.

ولكننا بإزاء هذا نجد أموراً يصعب علينا فهمها في جمهورية النظرية، حيث الليبرالية الديمقراطية.

وإنه لخطير أن يكون المرء مطلعاً. إذ إن الاطلاع والقراءة يجعلان المقروء الماثل انعكاساً لمقروءات سابقة.

لذا فإن حادثة مركز روكفيللر بوجهيها، رسوم ريبيرا وامتلاك اليابانيين للمركز، تستدعي عندي حكاية (ريشة) للشاعر الفرنسي هنري

ميشو. والحكاية تقول:

دهش ريشة حين مد يديه خارج الفراش ولم تلامسا الجدار.

«عجباً، أحسب أن النمل أكله». وعاد إلى النوم . بعد قليل أمسكته زوجته وهزته قائلة:

«انظر أيها الكسول، لقد سرقوا منزلنا حينما كنت غارقاً في النوم» .

وفعلاً كانت سماء كاملة تمتد من كل الجهات، ففكر «ياه.. لقد قضي الأمر».

(ترجمة سامي مهدي، مختارات من هنري ميشو. دار المأمون. بغداد 1989ص 65).

إن التحصن ثقافة شرقية تخلق جداراً قابلاً لأن يكون غذاءً للنمل أو مادة للصوص. ومن ثقافة الشرق ـ أيضاً ـ أن يعالج الهم بدواء (ريشة) فينام عن الجدار المفقود ولا يصبح الجدار هماً حينئذ.

وإن كان ريشة صناعة فرنسية فهل سيجد مكانا في سفن الهجرة نحو الغرب كي يقدم علاجه الناجع في التشرق والشفاء..!؟

* * *

15 خطيئة كولومبوس

15 ـ في تراثنا الأدبي تتردد حكاية مجنون ليلى مع الظبية، حيث صاد الشاعر ظبية جميلة فلما حدّق في عينيها وفي جيدها رأى فيها شبها من محبوبته ليلى، فأطلق سراح الظبية تقديراً لهذا التماثل الجميل.

هذه حكاية عربية تصدر عن ثقافة شرقية وتعبر ـ أيضا ـ عن مسلك شرقي.

ولعل الثقافة الغربية والمسلك الغربي لا يقبل هذه السذاجة ولا يرتضيها لنفسه. ولذا فإن كولومبوس يتشبث بأمريكا لأنها تشبه عنده ما كان قد قرأ عنه من قبل عن الفردوس الأرضي. وبما أنها فردوس يماثل الفردوس المتخيل فإن كولومبوس يعتقل الأرض ويضمها إلى مملكة التاج الإسباني فرحاً بهذا الصيد السمين.

إن كولومبوس قد اصطاد أمريكا مثلما يصطاد الصياد ظبية أو طائراً جميلاً وسميناً وهو لم يكتشفها كما أنه بكل تأكيد لم يخترعها. فهي موجودة من قبله وهي معمورة من قبله، وهي مكتشفة ومفتوحة من قبله. وهذه الجموع البشرية من الهنود الحمر بثقافاتها وحضاراتها المختلفة كانت جموعاً من المهاجرين والرحالة الأوائل الذي قطنوا الأرض

وعمروها من قبل أن يكون كولومبوس.

ولا يتميز كولومبوس عن هؤلاء الهنود إلا بشيء واحد فحسب. وذلك الشيء هو تمكن كولومبوس من الاتصال مرة أخرى مع العالم القديم.

لقد كانت الوفود الأولى تصل إلى أمريكا في رحلات وهجرات متفاوتة ثم ينقطع بها السبيل بمجرد وصولها إلى بر الأمان في تلك البقاع الغربية البعيدة المعزولة. وتعجز هذه الهجرات عن العودة مرة أخرى إلى مواطنها القديمة. ولذا فإن إنجازها الحضاري وفتوحاتها الجغرافية ظلت خارج السياق التاريخي والمعرفي للعالم القديم. لقد كان إنجازا عظيما ولكن أهلهم وذويهم في مساقط الرؤوس لا يعلمون عن هذا الفتح الجليل.

ولقد كان من الممكن أن يحدث شيء مماثل لكولومبوس لو أن السبل تقطعت به، ولم يتمكن من التواصل مع أهله في إسبانيا. إذن سيكون مجرد بحار مفقود. غابت شمسه في المحيط وقد تبكي عليه زوجته وبعض أقاربه المحبين أياماً معدودات ثم ينسونه أو يحتسبونه عند الله، مثلما سينساه التاريخ وسجل الذكريات، بينما سيظل هو هناك في الأرض الجديدة يرتع ويزرع وينجب الأولاد ويبني الأكواخ .

وسوف يكون بناؤه للأكواخ وصناعته للآنية شبيها بما تعلمه في مسقط رأسه. ولسوف تتكرر هذه التشابهات والتماثلات لكي تكون لغزا ثقافياً لمن يأتي من الباحثين الذين سوف ينشغلون كثيرا بالبحث عن إجابات وعن تفسيرات لهذه التشابهات، تمامامثلما هو جار الآن عن وجود تماثل وتشابه ما بين حضارة الأزتيك في المكسيك وحضارة الفراعنة في مصر. وبين نقوش الأواني في حوض الأمازون ونقوش الإغريق في اليونان. ولسوف نقرأ عن نظريات عديدة وافتراضات متفاوتة عن تشابهات بين بيوت إسبانيا وما فيها من تأثير عربي وبين مماثلاتها في أمريكا. وقد يقول قائل ان العرب كانوا هنا وهناك. أو لعلهم احتموا بأمريكا من مطاردة إسبانيا المسيحية لهم بعد إجلائهم عن الأندلس .

كل هذا ربما يحدث لو أن كولومبوس عجز عن الاتصال بأهله في إسبانيا بعد عثوره على امريكا أو اصطياده للقارة المعزولة.

ولكن كولومبوس عاد إلى العالم القديم وتواصل مع البلاط الإسباني وعقد حبلاً متصلاً بين جانبي المحيط. وهو هنا يحقق ما لم تستطعه الأوائل. لقد حقق (الاتصال).

وهـذا هـو الإنجـاز الحقيقي لكولومبـوس. إنـه (الاتصـال). لقـد دخل كولومبوس التـاريخ وسجل اسـمه في دفاتر الجغرافيـة بوصفه أهم جغرافي وأهم بحار في تاريخ البحـارة البشـرية.

إنه لـم يكتشـف أمريكـا كما أنـه لـم يفتح أمريكا. لقـد اكتشـفها أقوام وطوائف بشـرية من قبلـه، وفتحها أقوام وجماعات من قبلـه، ولكنه تواصل حيث انقطعوا وعـاد حيث تـاهوا. وتشـبث بالظبيـة حينمـا صادهـا ولـم يطلقها إكراماً لشبهها بمحبوبتـه.

هكذا أفلـح كولومبـوس حيث تحصـل علـى صيـد سـمين وحيث فتح البـاب علـى كل مصاريعـه لكي يرتحـل الغرب نحو الغـرب، وتسـيير القوافل مطمئنة وموعودة بأرض الذهب والعبيد والنساء.

ولكن ماذا صار لهذا الموقع الغربي الآمن..؟

يشير غابرييل غارسيا ماركيز إلى مأدبة عشـاء صارت في المكسيك على شـرف الرئيس الفرنسـي ميتران. وفي أثنـاء المأدبـة وجـه ميتران سـؤالا إلى الحـاضرين عن العـدو الرئيسـي الذي يمكـن ان يهدد وجودهم القومـي. وكان الحضور يتكون من مجموعة من الأوروبيين ومجموعة من أمريكا اللاتينية.

ولقد قـال الأوروبيون إن عدوهم الرئيسـي هو الاتحـاد السوفياتي، أما اللاتينيون فقد أجمعوا على أن عدوهم هو الولايات المتحدة الأمريكية.

ولـو كـان في الحضـور ممثلـون للأزتيك في أرضهـم الأم (المكسـيك) لقـالوا إن عدوهم الذي أفنـاهم ومسـحهم من الأرض هو الإسبان. وحينئذ لن يكون في مقدور السيد ميتران اقتراح نظام عالمي جديد يلغي فيه العدو الرئيسـي.

إن الغاء العدو يستلزم إعادة عقارب التاريخ من أجل منع كولومبوس - أو الاقتـراح عليـه من اجل مصلحـة الإلفـة الإنسـانية الا يعيد الاتصـال مع العالم القديـم لكي تظل أمريكا أرضـاً لمن رغب في الذهـاب دون عودة، ولمن أحب التخلص من العالم القديم ومن العدو الرئيسـي.

ولكن كولومبـوس أعـاد الاتصـال فـأوجد في الغـرب عدوا رئيسـيا فـاق العـدو الشرقي فكانت هذه أكبر خطايـا كولومبوس مثلما أنها أكبر هدايـاه، ومصائب قومٍ عند قوم فوائد.

* * *

16 امبراطورية اللغة

16-1 الذئب والخروف:

لو تقابل ذئب وخروف فلن يجد أي واحد منهما عائقاً يحول بينه وبين فهمه لنوايا الآخر أو لحقيقة الآخر. إنهما يعرفان بعضهما البعض بالغريزة ويتصرفان حسب هذه المعرفة الغريزية.

وعلى هذا سارت كل علاقات القوي مع الضعيف، حيث تدفع القوي غرائزه. وشهواته. نحو الهيمنة على الضعيف والسيطرة عليه ولكن...

ماذا لو أن الذئب فكر في تغيير علاقته مع الخروف فبدلاً من أن تكون محكومة بالغريزة الحيوانية يحاول أن يطور هذه العلاقة ليجعلها تتخذ صيغة ثقافية متحضرة وبدلاً من أن يفترس الخروف مباشرة ومن دون مقدمات، يحاول الذئب أن يدخل مع الخروف في حوار مهذب ولبق لكي يجعله يدرك أن للذئب قضية معه، وهي قضية فيها من صفات العدالة والمنطق ما يكفي لكي تكون مسألة أخلاقية وحضارية.

وهذا ما تقوله إحدى الحكايات العربية القديمة، حيث جاء الذئب مرة إلى خروف يرعى في البرية فقال له: أيها الحمل الغر ألست أنت

الذي شتمتني وتطاولت على شرفي وسمعتي ـ بالقول المشين واللسان البذيء..؟!

فقال الخروف: متى هذا..؟

قال الذئب: لقد فعلت هذا العام قبل الماضي (عام أول). فرد الخروف وقد عرف حقيقة الأمر: لقد ولدت هذا العام. وإنك أيها الذئب قد نويت الغدر بي (فدونك كلني لا هنا لك مأكل).

هذا الذئب المتحضر (المتطور) لم يشأ ان يكون حيواناً متوحشاً، ولكنه اختار طريقة متحضرة في التعامل مع (الآخر الضعيف) فسلك إليه سبيل اللغة واخترع منطقاً لغوياً يقوم على اسباب ومسببات تبرر التصرف.

هذه الحكاية عربية قديمة تكررت في كتب تراثنا، ويبدو أنها . أيضاً . قد وجدت طريقها نحو الغرب حيث هاجرت مع الشمس من المشرق العربي إلى فرنسا حيث وجدت لها موقعاً في حكايات (لافونتين) عن الحيوانات. وهذه هي الرحلة الأولى لهذه الحكاية.

اما الرحلة الثانية فإننا نشهدها الآن. وذلك في الخطاب السياسي لأمريكا المعاصرة.

وهو خطاب تحول فيه الذئب القديم إلى ذئب حديث متطور. وتحولت فيه علاقات القوي مع الضعيف من علاقات الافتراس الوحشي إلى علاقات أخرى مختلفة.

لقد تعلمت أمريكا من تاريخ البشرية دروساً كثيرة وأهم هذه الدروس هو درس العلاقة مع الآخر. وصرنا نشهد تحولاً جذرياً ونوعياً في هذه العلاقة يشبه تحول الذئب من وحش مفترس إلى خطيب بليغ يداور ويحاور في سبيل هدفه. تحول الذئب من سلاح الانياب إلى سلاح اللغة. وهذا هو بالضبط ما اكتشفته أمريكا أولاً ثم برزت فيه ثانياً. ولسوف يكون ذلك علامة من علامات هذه الدولة، وشاهداً من شواهدها مما يجعلها بحق امبراطورية لغوية فذة.

2-16 امبراطورية اللغة:

شهد التاريخ امبراطوريات متنوعة لها أسلحة متنوعة ولها امجاد

متنوعة ولكن تنوعاتها هذه كلها يجمع بينها عامل واحد مشترك حينما تتعامل مع الآخر الذي هو بالضرورة آخر ضعيف (أو آخر منافس)، وهو أنها تتعامل مع هذا الآخر بأسلوب المحاربة والاحتلال (العسكري). وهذا هو ديدن كل امبراطوريات التاريخ قديمها وحديثها.

أما أمريكا فإنها تقدم لنا نوعاً متطوراً من انواع المحاربة والاحتلال، إنه نوع يشبه حركة الذئب مع الخروف. إنه المحاربة والاحتلال ـ لا العسكري ولكنه اللغوي.

وفي سبيل ذلك لا تتردد امريكا أبداً في التخلي عن سلاحها العسكري، إذا احست بدواعي ذلك. لقد انسحبت أمريكا من فيتنام ومن بيروت ولم تجد في ذلك غضاضة أو خدشاً في كرامتها. ولم تستح من التاريخ ولا من المستقبل في تصرفاتها هذه. كما أن هذه الانسحابات لم تفض إلى انكسار مجد الولايات المتحدة ولو كانت هذه الانسحابات قد صارت لإحدى الامبراطوريات القديمة لكان في ذلك نهاية تلك الدولة المهزومة.

ولكن امريكا تنسحب ولا تهزم، ويموت من عساكرها آلاف مؤلفة ولا تهزم، حتى إن رئيسها يقتل ولا يهتز لها ركن أو جانب.

لقد تعلمت امريكا من الماضين هذا الدرس البليغ، وهو أن للمجد والسلطة طريقاً أخرى غير طريق العساكر والجيوش. وتعلمت أن الامم السابقة فقدت سلطانها على الأرض لأنها اعتمدت على انتشارها العسكري.

ومن هذا الدرس راحت امريكا تخترع وسيلة خاصة بها، لم تستخدم من قبل، وهي وسيلة (اللغة) كطريق للتحكم بالآخر وإخضاعه.

3-16 ميلاد اللغة:

يأتي سيناريو اللغة في أمريكا منطلقاً من معمل لغوي متطور جداً، وهو البيت الأبيض، حيث تأتي اللغة على شكل (بيان) مكتوب، يلقيه متحدث رسمي (أو متحدثة رسمية) باسم البيت الأبيض. ويتم إلقاء هذا البيان بقراءته أمام حشد منتقى من الصحفيين الذين تم اختبارهم واختيارهم على مدى طويل ومدروس. واختيار الصحفيين وانتقاؤهم يقابل عملية انتقاء لغة البيان واختيارها. حيث انها لغة تمت صناعتها من

خبراء البيت الأبيض، ويتم ذلك بعناية فائقة تقف وراءها خبرة عميقة وتجارب موثقة. وتتم صناعة اللغة وسبكها كنتيجة لهذه الخبرة العميقة. وتتسم هذه اللغة بصفات الدقة والعمق والتوازن والغموض المقصود والايحاء المتعمد.

وما إن تنطلق الكلمات من لسان المتحدثة (أو المتحدث) حتى تقع على أسماع بشر من ذوي الخبرة. وأول هؤلاء مندوبو الصحف ومحطات الاذاعة والتلفزيون.

وبعد هؤلاء يأتي صف آخر من اهل الخبرة لهم وظيفة محددة، فهم يستقبلون (البيان) الصادر ويأخذون بعد ذلك في تأويله وتفسيره وتحليله، وهؤلاء هم بمثابة (الكهنة) الذين يزعمون لأنفسهم حق معرفة بواطن الأمور، ويحتكرون حقوق التفسير. فيأخذون في ممارسة حقهم القدري هذا وينطلقون يعطون كل كلمة معنى يخصها، وكل إشارة دلالة تنطلق منها. وهكذا إلى أن يأتي صف ثالث من السدنة، الذين يباركون القول ويرددون كلمات التأمين والتصديق ، إلى أن تصبح كلمات (البيان) مصطلحات سياسية وثقافية وتصبح علامات صدق وعلامات فعل.

إن ميلاد اللغة يتم في البيت الأبيض، ويكون الصف الأول من الصحفيين المرابطين دوماً عند أبواب القصر الامبراطوري ينتظرون ميلاد الطفل اللغوي. وليس لهؤلاء الصحفيين من ارتباط آخر اذ إن شغلهم الأوحد هو الانتظار الدائم والمرابطة المستمرة، ولا يتعين في هذا الموقع، موقع المرابطة والانتظار، إلا المحظوظون من نوابغ الإعلاميين والإعلاميات.

أما الصف الثاني فهو جماعات من اهل الحكمة والمعرفة يجلسون في استوديوهات التلفزيون في واشنطن العاصمة، وفي نيويورك. ودورهم يأتي بعد اذاعة البيان وبثه على العالم، حيث يعيدون صياغة البيان بلغة الصحافة والسياسة وهم لهذا يمثلون دور (الوسيط) ما بين السيد الامبراطور الذي هو النص الأساسي المتمثل بالبيان وما بين عامة الناس وجمهورهم الذين يعتمدون على هؤلاء (الحكماء) لفهم لغة البيان ووضع حروفها على نقاطها.

وبعد أن يفرغ هؤلاء الحكماء من مهمتهم يأتي (السدنة) من كافة ارجاء المعمورة ليشيعوا الخبر وينشروه، وليبلغوه إلى من لم يسمعه وهذه

الفرقة تنطوي على جماعات بشرية لا تحدها حدود ولا ألوان، وكثير منهم من المتطوعين الذين يجدون أن انضمامهم إلى امبراطورية اللغة هذه يعطيهم موقعاً في الخطاب السائد والمسيطر. ولذا فإن كتاب العالم الثالث يتدافعون في هذا الطريق، وينصاعون اليه مثل انصياع الخروف في لعبة الذئب، ومثل انصياع ضحية شكسبير في مسرحيته سيمبلين حيث تصيح الضحية بالجزار وتقول له أرجوك اذبحني.

هذا ميلاد اللغة على يدي حاضنة متمرسة وجيوش من الكهنة والسدنة يضمنون للطفل الامبراطوري حقوق السلطة والهيمنة.

* * *

17 الرابطة الهيرمسية

17-1 إن كانت أمريكا هي امبراطورية اللغة فهذا يقتضي ويستوجب استخدام اللغة بطريقة خاصة ذاك لأن اللغة وسيلة بشرية قديمة يملكها البشر كلهم دون تمييز، ولكن التمييز يأتي عن طريقة الاستخدام الخاص والتوظيف المختلف. ولقد رأينا في المقالة الماضية أن الذئب والخروف معا استخدما اللغة، ولكن استخدام اللغة عند الذئب اختلف عنه عند الخروف. فالخروف أخذ الجانب الواقعي من اللغة وكان صادقا وواضحا وصريحا، بينما أخذ الذئب الجانب المتخيل واخترع شيئاً لم يكن في الواقع ولا في الصدق، ومن هنا فإن الصدق أفضى إلى الموت، أما الخيال (والكذب) فقد أفضى إلى مكسب سمين، وأكل الذئب الخروف بعد ان طلب الخروف ذلك مستسلماً ومسلماً بهذه النتيجة.

إن لغة الخروف في الحكاية لغة طبيعية فطرية فيها تلقائية وعفوية، ولذا فقد رد على الذئب حسب مقتضيات هذه اللغة. أما لغة الذئب فهي تمثل نقلة نوعية تنتقل باللغة من فطريتها (وصدقها) إلى مستوى آخر، وهو مستوى لم يعد فطرياً ولم يعد صادقا.

انه مستوى لغوي عرفته الأسطورة الاغريقية عبر (هيرمس). هذا

الذي تنتسب إليه البلاغة والتجارة والاتصال. وذلك لأن عبقريته ومهارته في الكذب نبغت عنده بعد ميلاده مباشرة، لقد ولدته أمه كذابا. وحينما صار عمره يوماً واحداً سرق قطيع غنم من (أبوللو).

ولم يعترف بهذه السرقة حينما سأله أبوللو عنها حيث قال هيرمس كيف أسرق وانا لم أولد غير يوم أمس.

وراح هيرمس الوليد يستخدم مهارته في الكذب والحيلة فخدع السلحفاة وجعلها تتبرع بجزء من جسدها ليصنع هيرمس قيثارة من ذلك الجزء. لقد صار هيرمس عند اليونانيين إله البلاغة والتجارة، والاتصال لأنه نبغ في مهارة الكذب من أول يوم له على الأرض. بينما فقد الخروف حياته لأنه لم يستطع مكافحة كذبة الذئب.

إن أسطورة هيرمس تعطي الكذب موقعا خاصا تتأسس عنه البلاغة والتجارة والاتصال، ويأتي هيرمس اليوناني ومعه الذئب في الحكاية العربية، ليجعلا (الكذب) معنى بلاغياً ينتج عنه خطاب القوة والسيطرة.

ولكن الكذب لا يصبح قيمة بلاغية إلا إذا وظف توظيفا ذكيا بحيث تتخفى فيه صفة اللا صدق، ويظهر وكأنه حجة منطقية تتلبس بلباس الصدق وتتسمى باسم الصدق. فهذا الذئب العربي يقول إن الخروف شتمه وأهانه قبل سنتين، حتى وإن كان الخروف قد ولد هذا العام.

ومن شرط العدالة والإنصاف أن يعاقب المعتدي، ويحق للذئب أن يقتص من الخروف بالطريقة التي يراها حيث إنه مظلوم ومعتدى عليه، هذه هي شروط العدل والحق، ولذا ينصاع الخروف ويترك الذئب يأكله، فهل هذا كذب أم صدق..؟

إنه الكذب الصادق، الكذب البليغ.

أما هيرميس اليوناني فإنه يسأل بإخلاص كيف أسرق وأنا لم أولد غير يوم أمس؟ إن الذي ولد تواً لا يمكن أن يسرق. هذا هو رأي المنطق والطبع. ولذا يصبح الكاذب السارق صادقاً وبريئاً، لأنه استخدم لغة الصدق والمنطق لكي يجعل كذبه صدقا.

هذه - إذن - هي القيمة البلاغية التي تجعل الخطاب ينفذ ويفعل.

2-17 نقول إذن: إن كانت اللغة ستصبح اليوم سببا للسيطرة على الآخر فلا بد من إحياء هذا الجانب الأسطوري للغة وسوف يكون هيرمس

ويكون الذئب هما النموذج الإبداعي الذي يحقق للغة سلطتها وتأثيرها.

ولذا فإن اللغة الانجليزية تنتقل مع أميركا لتأخذ منزلة خاصة بين اللغات. فهي قد أصبحت سلاحاً امبراطورياً يحل محل الدبابات والعساكر، ولهذا فقد صارت هذه اللغة تمثل (العدالة والانضباط والقيم الحضارية). لقد قالت ذلك وبشرت به الليدي مارجريت تاتشر - وذلك في حديث اذاعي معها في اذاعة لندن (البرنامج العالمي في 1993/11/21).

إن صفات العدالة والانضباط والقيم الحضارية هي الصفات التي كانت تطلق على جيوش أوروبا الاستعمارية. كما أشار ادوارد سعيد في العديد من دراساته. وها هي صارت اليوم تطلق على (اللغة الانجليزية) هذه اللغة التي تربط بريطانيا مع أميركا وبالفرحة الليدي تاتشر بهذه الرابطة الهيرمسية المقدسة. كما أنها تربط آخرين تميزوا عن غيرهم بهذا الفضل، ولذا فإن وكالة الاستخبارات الأمريكية ترسل آلاف الجواسيس الى كل بلدان العالم باستثناء ثلاث دول فحسب، هي كندا وبريطانيا واستراليا.

إن رباط اللغة لا يوحد الجبهة فحسب ولكنه أيضا يطمئن كل طرف من طرفه الآخر. ولا شك أن الذئب العربي لو قابل هيرمس اليوناني فإنه لن يأكله كما أكل الخروف، كما أنه لن يخاف على شعر جلده من قيثارة هيرمس، إن رباط اللغة - يطمئن أحدهما من الآخر.

3-17 إذا كانت (العدالة/ الانضباط/ والقيم الحضارية) هي صفات اللغة الانجليزية فهذا بالضرورة يعني أن كل مفردة من مفردات هذه اللغة هي أيضاً متصفة بهذه الصفات الثلاث. ويعني أيضاً ان شعوب هذه اللغة هم أهل هذه الصفات وممثلوها.

وهنا تنشأ علاقة عضوية بين اللغة ومصطلحاتها من جهة، وبين المتكلمين بهذه اللغة من جهة ثانية، مع صفات العدالة والانضباط والقيم الحضارية.

وفي مقابل ذلك تأتي اللغات الأخرى غير هذه اللغة لتكون مجردة من هذه الصفات. ولتكون بحاجة إليها.

وهذا يعطي السيدة الامبراطورة حق (أو واجب) نشر هذه الصفات على المحرومين منها. تماماً مثلما كانت جيوش أوروبا تتجه إلى الشرق والجنوب في مهمة حضارية انسانية لتنشر العدالة

والانضباط والقيم الحضارية.

ويكون ميلاد اللغة في البيت الأبيض ميلادا اسطوريا متجددا يوما بعد يوم ليسعى الى تنظيم الآخر وإدخاله في جنة الامبراطور الجديد، ومن شذ فقد شذ في النار.

* * *

18

الهرة البيضاء
أو
امبراطورية اللغة

18-1 يروي أريك فروم في كتابه الجميل (اللغة المنسية) حلماً لإحدى السيدات رأت فيه هرة بيضاء وحولها مائة فأرة، وكانت الفئران بعددها هذه تقف خائفة ومرتعبة من هذه الهرة الوحيدة. ولقد انشغل ذهن السيدة بسؤال ظل يلح عليها وهو: ما الذي يجعل مائة فأرة تخاف من هرة واحدة..؟!

من الممكن لهذا السؤال أن يكون واحداً من أبرز علامات التاريخ حينما تسيطر قوة واحدة على مائة أمة أخرى.

وليس بغريب على التاريخ ولا على الثقافة أن يحدث هذا، ولكن الغريب دائماً هو أن تستنجد الضحية بالجزار وتقول له: أرجوك اذبحني، كما حدث في مسرحية (سيمبلين) لشكسبير.

هنا تكون المائة فأرة قد اسهمت في خلق الهرة البيضاء وفي تقويتها وتسمينها. وهذا هو ما ظل يحدث في التاريخ كله. وإن كانت أمريكا المعاصرة قد صارت ـ عندنا ـ بمثابة امبراطورية لغوية، فلا شك أن ما يمثل العالم الآخر قد كان له ـ وما يزال ـ دور أساسي في خلق هذه الهرة البيضاء أو الامبراطورية اللغوية.

إن هـذا يحدث يومياً وبشـكل تلقائي وفوري بمجرد أن يصدر (بيان) رسـمي عن البيت الأبيض، حيث يتسـارع سدنة اللغـة لاسـتقبال تعليمات حكماء البيـان حسب آليات الاستقبال والتفسير التي وصفناها في المقالة السابقة ونعطي هنا مثالاً عليها في الفقرة التالية.

2-18 في سـبتمبر 1993م كـانت كل فئران العـالم تشـاهد شاشـات التلفزيون ذات البث المباشـر وأبرز واحدة فيهن كـانت الـ (CNN)، هذه الهرة البيضاء التي كانت تركز عدسـات عيونها الثاقبة على مبنى البرلمان الروسي، حيث الدبابات التي تقصف والرجال والنساء الذين يخرجون من المبنى رافعي الأيدي ومطـأطئي الرؤوس، وتقول لنـا مذيعـة المحطـة إن هؤلاء هـم أعضـاء البرلمان الذين عزلهـم رئيس الدولـة وأمـر بـإيداعهم السجون. كمـا أنـه ألغى المحكمـة الدسـتورية وعـزل كل معارضيـه واغلق الصحـف. وهـدد بـالويل والثبور كـل مـن وقـف معترضـاً علـى قـرار مـن قراراته، ثم ألغى الدستور وشرع بكتابة دستور آخر على مزاجه وهواه.

كل هذا سـمعناه (وشـاهدناه) من على شاشـة هـذه المحطـة الأمريكية التي أذاعت ذلك باللغـة الإنجليزية وكـانت كل فئران العـالم تشـاهد وتسمع وأخـذ منها الحماس والانفعـال مأخذاً بليغاً حينما شـاهدت الحدث لحظة وقوعـه وحينمـا رأت النـار تـأكل راس مبنى البرلمان. وبقي لنـا شـيء واحد نسأل عنه ونتساءل حوله وهو: يا ترى ماذا نسمي هذا الفعل... ؟!

لقد أصبحنـا عالـة على النص الرسـمي علـى (البيـان) ولـن نفهم أو نتنبـأ بحقيقـة الحدث إلا بعد أن نسـتمع إلـى (البيان). لقد أصـاب الفئران حالة من الإدمان اللغـوي لا تستطيع معه ربط الـدال بمدلولاته إلا بواسطة (البيان) وبعد تفسيرات الحكماء وتبريكات السدنة.

وجاء البيان ...

جاء من سـان فرانسيسـكو هذه المرة، حيث كان الرئيس بيل كلينتون هنـاك، وفيـه قـال الرئيس إن الرجل الذي فعل تلك الأفعال هـو رجل يمثل الديمقراطية في روسيا، ولذا فإن أمريكا تقف بجانبه.

هنـا حدث عندنا مشكلة لغوية عويصة، تتعلق بما فهمناه من قبل عن معنـى (ديمقراطيـة) وهو فهـم معجمي وثقـافي. ووجدنـا أن فهمنـا هذا لا يتطابق مع ما ورد في البيان الرئاسـي. ومثل حال كل إنسـان يجد نفسه في معارضـة مع السـلطة فإنـه يتوقـع معـاضدة من فئـات أخرى تعينـه على

تماسكه الداخلي وعلى توازن تفكيره مع واقعه الراهن.

وفي متاهة هذا الانتظار والتساؤل جاءتنا الأخبار بتصاريح من بريطانيا ومن فرنسا، وبتأويلات من كهنة اللغة في واشنطن ونيويورك تقول كلها إن بوريس يلتسين هو الرجل الذي عنده ـ وحده ـ مفتاح الديمقراطية في روسيا. وأن على الغرب مساندته.

3-18 أمام لغة قوية كهذه اللغة يقف المرء في مأزق فكري حساس جداً. فإما أن تشك في ثقافتك وفي وعيك، أو أن تنصاع لشروط اللغة المهيمنة وترضى بمنطقها وتساعد الهرة على تخويف الفئران، وسوف ترتاح حينئذ لأنك قد أصبحت (معهم).

فإن استبد بك العناد فستدخل في عزلة تاريخية وثقافية، حتى وإن ظللت بريئاً ونقياً ومخلصاً للغة التي كنت تعرفها من بطون كتب التاريخ وفقه السياسة (القديمة أو باقي أوراق النظام العالمي القديم).

ولو قررت هذه العزلة فسوف تتذكر ما كان نعوم تشومسكي يقوله عن (صناعة الإجماع) حيث تسعى المؤسسة الرسمية إلى عزل المعارضين عزلاً ثقافياً بحيث يشعر الواحد منهم أنه (وحيد) فيما يشعر به وما يحسه، وبذا تنعكس آراؤه ضده لأنه سيظل يعتقد أن الناس جميعهم موافقون وراضون باستثنائه هو (بمفرده) فينتكس على نفسه باللوم والسخط.

وتمارس المؤسسة الرسمية في سبيل ذلك وسائل ذكية جدا تحبط فيها التنظيمات العمالية والطلابية، وبالفعل فإنك اليوم لا تجد في أمريكا أي دور (أو وجود فعلي) لهذه التنظيمات وزال دور نقابات العمال ومفعول طلاب الجامعات الذين كانوا يمارسونه في السنوات السابقة. وهذا أحدث فراغاً في صفوف المعارضة وشتت صوتها وفرق صفوفها. وصار كل معترض يعيش في عزلة ثقافية ونفسية لأنه لا يرى أحدا يشاركه الاعتراض. ومن هنا فإن نوعاً من الإجماع الوهمي تتم صناعته ويتم الإيهام بوجوده عبر وسائل الإعلام وهي وسائل متواطئة مع المؤسسة الرسمية في صناعة هذا الإجماع وتمريره.

ولا شك أن ما لمسه تشومسكي في كتابه (الأوهام الضرورية ـ NECESSARY ILLUSIONS) يتجلى أيضا عبر سيناريو اللغة التي يمر بها البيان منذ لحظة إنشائه إلى مراحل تفسيره ومن ثم في مرحلة

استقباله وإشاعته. وسيكون يلتسين حينئذ ديمقراطيا لأن الهرة البيضاء تريده أن يكون كذلك.

وسوف يكون من السذاجة الفكرية أن تسال حينئذٍ السؤال التالي: إن كان يلتسين ديمقراطياً فمن هو الدكتاتور إذن.. ؟

إن مصطلح دكتاتور سيجد نفسه في مأزق دلالي خطير إذ من الصعب أن تجد له معنى ما دام الذي حدث في موسكو في سبتمبر 1993م عملاً ليس من أعمال الدكتاتورية والاستبداد . وما دام بينوشيه يعلن أن لديه ثلاثة ملايين تشيلي زائدون، ولم تر إمبراطورية اللغة مشكلة في دعمه أو التعاون معه.

إن على مئات الفئران أن تظل تخاف من هرة بيضاء واحدة، وعليها أن تواصل النفخ في جثة هذه الهرة إلى أن تصبح ديناصورا يأكل ما حوله وينتهي بإفناء نفسه بعد أن يفني من هو أضعف منه.

* * *

19 الأوهـــام الضرورية

19-1 لا أظن أن أياً من إمبراطوريات التاريخ قد حصل لها مثلما يحصل لأمريكا اليوم، حيث لم يحدث من قبل أن ساد العالم دولة واحدة لا منافس لها. كما لم يحدث أن بلغت لغة ما مثل ما بلغته اللغة الإنجليزية في امتدادها المكاني وفي هيمنتها الاصطلاحية.

ومنذ مطلع عقد التسعينات صار لأمريكا دور مطلق في الرأي وفي الحكم وتكفي كلمات الرئيس ليعم الأرض كل الأرض مصطلح رئاسي يحظى بالقبول والشيوع. ولقد رأينا كيف سيطر مصطلح (النظام العالمي الجديد) بمجرد أن أطلقه جورج بوش. ولقد شاع هذا المصطلح في صحافة العالم الثالث أكثر بكثير من شيوعه في أمريكا. بل إننا نرى هذا المصطلح قد غاب واختفى من الخطاب الإعلامي الأمريكي، ولكنه ما زال ينبض بالحياة والبريق في خطابات أهل الشرق وأهل الجنوب.

ومن الطريف في الأمر أن العالم لم يتساءل حقيقة عن مصداقية هذا المصطلح أو عن واقعيته وإمكانية تحققه من عدمها. ليس هذا لأن العالم قد فقد عقله أو أنه قد فقد قدراته على التحليل والنقد، ولكن لأن العالم يريد أن يعيش في ظل هذا الوهم.

هذا الوهم الضروري الذي يمنح صاحبه حسا بأنه (مع) وأنه (في) وليس (ضد) أو أنه (خارج) السياق.

وبهذا الفعل الذي ينطوي على الوهم يصبح من الضروري للمرء أن يذلل نفسه لقبول توازن نسبي بين المصطلح كمفهوم مثالي والمصطلح كمفهوم عملي ـ ولقد أدرك أفلاطون ذلك في جمهوريته وطرح نوعين من العدالة، أحدهما عدالة المساواة، والثاني عدالة اللامساواة. وسمى الأول باسم العدالة الحسابية، والثاني بالعدالة الهندسية. والحساب يأخذ بتوزيع الأعداد بعضها على بعض بالتساوي، أما الهندسة فتأخذ بفكرة (النسب) فتوزع الأشياء بناء على مرتبتها. وهذا أعطى أفلاطون فرصة للرضى الذاتي لكي يقبل بفكرة الطبقات والتمايز بين السادة والعبيد، من خلال العدالة الهندسية.

وهذا ينطبق على لغة الخطاب الأمريكي المعاصر حينما يتم قبول دكتاتور ما ورفض ومحاربة دكتاتور آخر، يتم ذلك في وقت واحد ولا يحس صانع البيان (القرار) بشيء من التناقض وذلك حسب مبدأ العدالة الهندسية (عدالة اللامساواة) وشكراً لأفلاطون الذي أعطى حجة فلسفية بليغة تريح الضمير وترضي العقل، وتجعل الوهم حلا مريحا، وبالتالي يصبح وهماً ضرورياً لما يمنحه لنا من راحة ورضى.

2-19 جربت الثقافة البشرية مواقف تشبه ما نحن بصدده حيث تبدو الأحداث ذات وجه بريء وصحيح، وهي ـ في الوقت نفسه ـ تنطوي على باطن مريب. وفي مسرحية (هاملت) لشكسبير واجهت بطل المسرحية أحداث جسام حيث مات أبوه. وكل مخلوق يموت. ثم تزوجت أمه. ومن حقها أن تتزوج ـ وليس في ذلك من بأس، لولا أن الأم قد تزوجت من عم البطل، وكان في الزواج ما يثير الشكوك. ولقد تشكك هاملت وبدأ يتساءل ويسأل ويعلن عن أسئلته أحياناً ويخفيها أحيانا أخرى، وتعرض لأذى كبير من هذه الأسئلة، ولقد كان بحاجة إلى (وهم) يرتضيه، ولكنه لم يجد وهمه هذا ، فاختار (الجنون) ليكون قناعا يضعه على وجهه ويغطي به عينيه عن النظر إلى أمه وعمه وما يمثلانه من ريبة وشك.

لقد تظاهر هاملت بالجنون ليكون الجنون رسالة يوجهها إلى الآثمين، وليكون أيضاً هو الوهم الذي يعطيه فسحة من الوقت ويوفر له معنى للبقاء وسبباً للتعامل مع الخونة.

كان هاملت رجلاً واحداً في المسرح الشكسبيري وهو اليوم يتناسل ليصبح أعداداً من المثقفين والمفكرين العالميين الذين يرضون بالوهم بديلا عن العزلة. ومن هنا فإن الضحية تتوسل للجزار أرجوك اذبحني.

وبواسطة قبولنا هذا الوهم تصبح لغة امريكا هي اللغة الطبيعية - عالمياً - وما عداها إما أن يجري في سياقاتها فيكون جزءا من هذه (العالمية المهيمنة)، أو أن يخرج ليصبح خارج الطبيعي والعالمي، وبالتالي فهو خارج الحضاري.

ولسوف يصبح المصطلح الأمريكي قانونا فكريا وثقافيا وذوقيا. ويشعر بالأمان كل من تحالف لغوياً مع أمريكا. وهذا مانراه في بريطانيا مثلاً حيث إنها الدولة الأوروبية الوحيدة التي لا تملك أكاديمية لغوية تدافع عن اللغة القومية. ذلك لأن اللغة الانجليزية لم تعد لغة قومية خصوصية، إنها مع أمريكا صارت لغة عالمية تخيف غيرها ولا تخاف وتغزو الآخرين ولا أحد يغزوها. وعلى فرنسا وغيرها من دول أوروبا أن تقيم الأكاديميات وتصرف الأموال على المعاجم لكي تحافظ على لغتها من الغزو الأمريكي ومن التهديد الامبراطوري، ولكن أنى لها ذلك وقد اتسع الخرق على الراقع، حتى لقد أصبح مصطلح (عالمي) و (عالمية) يعني أمريكي وأمريكية. ولا يشعر أحد بعالميته أو عالمية ثقافته وخطابه المعرفي إلا إذا ارتبط بسبب من اسباب الرضى والقبول الأمريكيين مثلما صار يلتسين ديمقراطياً حينما دخل في المعجم الأمريكي واندمج في سياق الخطاب الإمبراطوري المهيمن.

هذا هو الوهم الضروري الذي يكفل لصاحبه شبراً في جنة الدجال العصري.



20 سارق القمر

20-1 في الأدبيات المتوفرة عن المهاجرين الأوائل إلى أمريكا يظهر بوضوح أن الرجل الأوروبي قد أدخل الى الأرض الجديدة ثلاثة أشياء بارزة، هي :

الكتابة ..

واللون ..

والكذب ..

إضافة إلى أنواع من الأمراض لم يكن الأهالي الأصليون يعرفونها مثل الجدري والكوليرا.

ولم يكن الهنود الحمر يعرفون الكتابة، ولكنها جاءتهم مع الغازي الجديد، كما أنهم ذوو لون واحد يطبع بشرتهم ويوحد أوصافهم. وأدخل الأوروبي عليهم لونين بارزين هما اللون الأبيض وهو لون السيد الغازي، واللون الأسود وهو لون العبيد المجلوبين قسراً من أفريقيا. وبذا تلونت الأرض الجديدة بألوان من السيادة والعبودية.

ومع الكتابة واللون دخلت مهارة لم يكتشفها الهنود الأبرياء وهي مهارة الكذب. وهو كذب من النوع الراقي المتطور على طريقة الذئب مع

الخروف أو على الأسلوب الهيرمسي البليغ .

ولقد كانت مهارة الكذب أداة حاسمة في تقرير مصير عمليات الغزو والاجتياح. وأفاد الكذب كثيراً في تحقيق النصر. وكان الهنود ينهزمون دائماً لأنهم لا يعرفون هذه الحيلة البلاغية الماكرة. ومثلما استحوذ الذئب على الخروف، وتمكن هيرمس من أغنام أبوللو فقد تمكن الغازي الأبيض من الأرض وأهلها بحيله البلاغية الراقية.

واكتشف الهندي الأحمر الكذب متأخراً وبالتدريج. وتعلم من تجربته مع الرجل الأبيض أن مهارة الكذب مهارة حضارية لها ارتباط ثقافي وديني. وكان الهنود يربطون ما بين الديانة المسيحية والكذب. ويورد تودوروف في كتابه عن فتح أمريكا أن كلمتي كاذب ومسيحي قد أصبحتا تعبيرين مترادفين عند الهنود الحمر وعندما (كان الإسبان يسألون الهنود عما إذا كانوا مسيحيين، كان الهندي يجيب: نعم يا سيدي إنني بالفعل مسيحي بدرجة قليلة، لأنني أعرف بالفعل الكذب بدرجة قليلة، ويوماً ما سوف أكذب كثيراً وسوف أكون مسيحياً بدرجة أكبر. تودوروف 98).

لم يكن هذا من باب السخرية، فالهندي لا يسخر، ولم يك قد عرف صناعة الاستهزاء مثلما أنه كان يجهل الكذب، لقد كانت اللغة عنده أداة اتصال بشري فطري بريء، ولم يستعمل اللغة كأداة حرب وسلاح. ولقد فوجئ بهذا السلاح العجيب الذي هو شيء من مخترعات العالم القديم.

2-20 وقع كولومبوس مرة في حصار طويل أحاط به السكان الأصليون من كل جهة وتعرضت حملته لخطر بالغ، ودام الحصار شهوراً دون أن تسنح أي بوادر لحل المشكلة. وجاء الفرج إلى كولومبوس الرجل الأبيض المتمكن من ثقافة الإنسان الأوروبي بما فيها من بلاغيات وحيل، فهو يملك خبرة عميقة في المعارف الفلكية، وتبين له من حساباته الفلكية أن القمر سيؤول إلى كسوف وشيك . ولذا بادر كولومبوس وأعلن تهديداً صارخاً للهنود بأنهم إن لم يرفعوا الحصار فإن كولومبوس سوف يسرق القمر وسيحرمهم من نوره الليلي الأنيس، وفي مساء 29 فبراير 1504م بدأ كولومبوس في تنفيذ تهديده أمام عيون الهنود حيث أخذ القمر بالتلاشي من صفحة السماء وأصاب الهنود الذعر والخوف فرفعوا حصارهم واستسلم الخروف للذئب .

3-20 تأخذ حكاية استخدام اللغة كسلاح صورها الأولى من

الأساطير ثم من بلاغيات الغزاة الكلاسيكيين، وهي تتطور اليوم لتكون سلاحاً تكنولوجياً بالغ التعقيد. ولعبت أمريكا المعاصرة دوراً متميزاً في تطوير سلاح اللغة، وفي جعله نظاماً من الرموز والعلامات يقوم على شبكة من العلاقات الداخلية والخارجية، مما يجعل الخطاب يقوم على (بنية) ذاتية تغذي نفسها من داخلها وتفرض وجودها على ما هو خارجها، وتشكل عن هذا النظام اللغوي سلطة عالمية تعي أن بقاءها وقوتها لا تتم إلا بإقصاء الآخر ـ كل ما هو أخر ـ سواء الآخر المنافس أو ذلك الآخر الذي لا يفكر بالمنافسة واكتفى بمجرد تجنب سبيل السيد المهيمن. ولم يك في وسع ذلك النظام اللغوي أن يتسامح مع الآخر المنافس ولا مع الآخر المهادن / المجاني فراح النظام يحمي نفسه بواسطة عمليات الإقصاء لكي يتحقق له التفرد. ويحدث الاقصاء عبر آليات متنوعة، وأهمها هو تدجين الآخر وتطويعه كي يتقبل الايديولوجية التي يطرحها النظام اللغوي الجديد، فإن لم يتم التدجين فإن الآخر يتعرض لعمليات منتظمة من التشويه ومن ضربات متواصلة لإفساد خططه وزعزعة أركان وجوده. وهذه هي أفضل وسيلة لحماية الذات وسلطان هذه الذات.

وهذا الفعل يعطي الخطاب اللغوي المهيمن احساساً بالرضى الذاتي، تزول معه كل أعراض التناقض داخل هذا النظام، ولن يشعر أي أمريكي قط أن خطابه السياسي خطاب مزدوج أو خطاب منافق حيث هو في جوهره ديمقراطي من جانب ودكتاتوري من جانب آخر. وكل قرارات أمريكا السياسية الخارجية هي قرارات استبدادية امبراطورية ودكتاتورية. في حين أنها دولة النظام الديمقراطي داخلياً. وليست اللغة سوى هذه الوصفة السحرية التي تسمح لهذا الازدواج من خلال ما تقدمه من ثنائيات أشبه ما تكون بالثنائية الميتافيزيقية :

ديمقراطية / لا ديمقراطية

سوق / لا سوق

حر / مستبد

حضاري / متخلف

وجه للداخل ووجه للخارج، ولكنهما وجهان لا يتضاربان في وجدان كهنة اللغة، لأن البنية اللغوية هنا هي بنية هيرمسية (براغمايتة) تجعل حماية الذات وتأمين موقعها التاريخي والحضاري شرطا يبرر سرقة

أغنام أبوللو، وتجعل السارق ربّـاً للبلاغة والتجارة والاتصال جزاء ومكافأة على مهارته اللغوية.

ولهذا صارت اللغة من خلال ثنائياتها الميتافيزيقية هذه تحرص على حسم علاقتها مع الآخر من خلال تحويل هذا الآخر إلى شبيه مماثل ولا تسمح ببقائه كآخر مختلف، لأن اختلافه يهدد تماسكها منذ أن صارت امبراطورية لغوية.

* * *

21 المنبهر

21-1 بما أن إمبراطورية اللغة لا تعتمد على الاحتياجات العسكرية، فإن عمليات تدجين الخصوم وإخضاع (الآخر) المنافس و(الآخر) المختلف لا تتم في لمحة بصر أو بين عشية وضحاها كما كان يحدث مع الامبراطوريات الكلاسيكية. إن سلطان امبراطورية اللغة انبسط على الأرض بعد فترات ليست بالقصيرة. ومنذ الحرب العالمية الثانية وأمريكا في حالة من حالات المعارك المختلفة، كانوا يسمونها بالحرب الباردة، وهي حرب أفكار وثقافات وعقول، أي حرب لغة.

وعمليات السيطرة فيها لم تحدث عن طريق واحدة، أي أنها لم تحدث نتيجة للغزو والانقضاض من قبل الامبراطور اللغوي باتجاه الآخر. ولكنها حدثت عن طريقين، أحدهما ابتدأ في أمريكا متجهاً شرقا نحو ما يسمى بالعالم القديم، والثاني جاء من شعوب هذا العالم متجها نحو أمريكا. وإن كان الطريق الأول طريقاً تقليديا معهودا حيث يسعى القوي إلى السيطرة وإخضاع الآخرين، فإن الثاني طريق جديدة حيث سعت الضحية إلى الجزار وقالت له: أرجوك اسرع، وهذا هو طريق (المنبهر) كما سنعرض له في مقالتنا هذه وما سيتبعها .

21-2 من المفاخر التي يستطيع جورج بوش أن يظل يرددها باقي

عمره، وهو خارج السلطة، هي عبارته الأثيرة عن (النظام العالمي الجديد). هذه العبارة التي اطلقها بوش مع بداية التسعينات لم تك إلا ثمرة يانعة لسنين من التوله والانبهار العالمي بالتجربة الأمريكية. ولقد ظلت شعوب المعمورة تزحف باتجاه أمريكا إما مهاجرة هجرة فعلية وإما هجرة ثقافية.

والهجرة الثقافية (العقلية) هي التي ظلت تحفز خيالها وعقولها باتجاه الغرب منذ أن صارت أمريكا علامة على العصر وعلى التحضر. ولم يك (النظام العالمي الجديد) سوى هدية سخية من شعوب العالم إلى أمريكا.

لقد انبهر الناس بأمريكا فوضعوا أنفسهم بين يديها، وهذا هو الطريق المرتد الذي أحدثته لعبة اللغة الامبراطورية، حيث صار المرسل اليه، اداة للرسالة ووسيلة ليس لتوصيلها فحسب، وانما للهجرة إليها ـ عقلياً ــ والتماهي في صفات المرسل والتطبع بطبعه وتبني ذائقته ومصطلحاته.

3-21 في عام 1957م راح الروائي الكبيرغابرييل غارسيا ماركيز في زيارة رسمية إلى روسيا (التي كان اسمها في ذلك الحين الاتحاد السوفياتي، ومن صفاتها أنها شعبية واشتراكية). وذلك لحضور مهرجان الشباب في موسكو. ويبدو أن ماركيز قد جاءته فرص للتجول في أنحاء الجمهوريات السوفياتية، ولم تستأنس نفسه لشيء مثلما استأنس لغياب دعايات الكوكاكولا عن جدران الشوارع وشاشات السينما والتلفاز في هذه الجمهوريات. لقد أحس براحة نفسية عميقة لتخلصه من منظر زجاجة الكوكاكولا ذات القد المصقول والتعريجات المتموجة، ولابد أنه قد غبط شعوب هذه الجمهوريات على سلامة عيونهم وحصانة أذواقهم من هذه الزجاجة المجنونة. ومرت ايامه هناك فرحاً بهذه الراحة الفريدة التي لايمكن أن تتكرر في أي مكان آخر في العالم.

ولكن...

ويا لحسرة ماركيز الذي لم تكتمل فرحته. ففي آخر دقيقة من مقامه هناك، وعند لحظة التوديع التفتت إليه مرافقته المترجمة الشابة الجميلة وقالت له بلغة أنجليزية تغلفها اللهجة الروسية: سيدي هل لك أن تقول لي كيف هو طعم الكوكا كولا ...؟

هنـا ابتدأ الطـريق باتجـاه الغرب، وصـرخـت الضحيـة تنـادي الجزار: أرجوك اســرع. ومنـذ ذلـك اليوم والنظـام العـالمي الجديد قد حبلت بـه بلقيس الشــرقية لكي يولد في عـام 1990 م على يد القابلـة (او القـابل) جورج بوش.

سـمع ماركيز هذا السـؤال فطـار رأسـه نحو الغرب ليسـتعيد نكهـة الكوكاكولا ومذاقها فقال لسائلته: إن للكوكاكولا مذاقاً يشبه طعم الأحذية الجديدة.

وتذكر تاريخـاً مـن المجد الكوكـاكولي في بـلاده (كولومبيـا) حيث كـان أطبـاء يصفونهـا دواء للأطفـال المصـابين بالزحـار. وآخـرون ينصحـون بتناولهـا لـترميم قوة القلـب. كمـا كـان هنـاك مـن يؤكدون أن تناولهـا مع الاسبرين يمنحها مفعول المخدرات، وذلك حسب تجربتهم الشخصية. أما طبيب أسـنان مـاركيز فكان يؤكد دون أن يطرف لـه رمش أنـه يمكن لسـن مغمور في كأس من الكوكـاكولا أن يذوب تمامـاً خلال ثمان وأربعين سـاعة. كيف تكتب الرواية ص17).

4-21 لقـد أحس الكـاتب الثـائر بريخت بهذا الـبريق المبهر لأمريكـا فقال قصيدته عنها حيث يردد:

أفضل شيء في أمريكا هو

أننا نفهمها

تستحضرها مجرد الأحرف الأولى لاسمها

U.S.A

كصديق طفولة فريدة يعرفه الجميع.

إن صديق الطفولة هذا هو الذي قدم زجاجة الكوكاكولا لتكون سائلاً سـحرياً يسـيل لعـاب شـابة روسـية ظلت تحلم بهذا المشـروب الخـلاب، وتسـأل عنه القـادمين مـن الغرب. وكـانت تمـارس السـؤال سـراً وتطرحـه همسـاً وهـي لـم تسـأل ماركيز إلا بعد أن أطمأنت إليـه ووثقت به ورشحته من بين البشر كلهم لكي يكشف لها عن هذا الطعم البعيد جداً في أقاصي الغرب. عـن هـذه القـارورة الأمريكيـة ومـا تخفيـه من مـذاق. حيث صـارت هـذه الزجـاجـة علامـة ورمزاً للمفقود المرغوب وللمـأمول المتخيل وصـارت علامة على تحرك الشرق باتجاه الغرب.

ولم يعد الطريق إلى الغرب طويلاً ولا شاقا إذ يكفي فيه أن يستمع المرء إلى اذاعة صوت أمريكا لكي يقول: ارجوك أسرع، اسرع.

لقد طلبت روسيا الكوكاكولا وتمنتها منذ ذلك الحين، ولكن أمريكا ـ سامحها ربها ــ تأخرت أكثر من ثلاثين عاما لكي تضع الكوكاكولا في شوارع موسكو، ليس بدافع أمريكي، وإنما بطلب روسي. هذا هو طريق المنبهر.

* * *

22 كولومبوس يفقد لغته

22-1 هناك علاقة عضوية بين أمريكا والانبهار. ولقد تأسست هذه العلاقة من الأيام الأولى لوصول كولومبوس إلى الأرض الجديدة. وكانت رسائله إلى البلاط الاسباني تفيض دهشة وانبهارا حينما يصف ما يراه وما يشاهده. وظل ينهل من مخزونه اللغوي يحشو رسائله بكل ما يملكه من رصيد بلاغي في الوصف والمبالغة حتى بلغ حدا فقد معه لغته واستنفد طاقته التعبيرية من البلاغة الوصفية. وجاء في بعض يوميات الرحلة تصوير لحالة كولومبوس وهو يقف مضطرباً أمام أحد المرافىء الجديدة، حيث أحس بالعجز التام عن وصف هذا المرفأ بعد أن استنفد طاقاته اللغوية في وصف مشاهداته السابقة، وظل يحاول الاعتذار عن موقفه هذا قائلاً: (إنه امتدح المرافىء الاخرى امتداحا عظيما بحيث إنه لم يعد يعرف كيف يمتدح هذا المرفأ . تودوروف 30).

ومنذ زمن كولومبوس وأمريكا تقف في المخيال العالمي على أنها تمثل الخارق المبهر. ولقد كان العالم في الستينات يحيل أحداث التاريخ كلها إلى التدبير الأمريكي. فكل انقلاب وكل اهتزاز اقتصادي، وكل هزيمة هي بالضرورة من صنع أمريكا وتدبيرها . وكل نجاح وانتصار لابد أن وراءه مباركة من السيدة القابعة هناك وراء المحيط.

مباركة من السيدة القابعة هناك وراء المحيط.

ولـم تكن الفتاة الروسية وهي تتمنى معرفة طعم الكوكاكولا سوى صوت من أصوات لغة كولومبوس التي ضاعت وتماهت في مديح أرض الاحلام.

وفي 1993/3/18م وقف رئيس ليتوانيا يرد على هاتف من مذيعة اذاعة لندن تسأله فيه عن الغرب فيرد بانبهار خارق:

الغرب... نعم

إنه... هدفنا

إنه ... حلمنا

هذا الغرب الجميل

هذا الغرب الساطع

يقولها بلكنة تذكرنا بفتاة الكوكاكولا وماركيز.. غير أن طموح رئيس ليتوانيا لا يقف عند تذوق الزجاجة السحرية ولكنه يتطاول ليطمع بالغرب كله، الغرب/ الهدف والحلم. ذاك الجميل الساطع.

2-22 هذه المسافة من يوميات كولومبوس إلى غزليات رئيس ليتوانيا امتداد زماني يكتنز بالحلم حول أمريكا ويتغذى بتنامي حالة الانبهار التي تمددت زمانياً لأكثر من خمسمائة عام، وتمددت اجتماعياً من رؤساء الدول إلى حسناوات السياحة ومترجمات الوفود. وإن ينسى اهل ولاية (أياوا) فإنهم لن ينسوا أبداً زيارة خوروتشوف إلى ولايتهم في الستينات، حيث راح يمازحهم ويغازل سماحتهم حينما قال لهم إن أرضهم مخصبة ـ مثمرة، وإنه لهذا فكر بأن يرسل جرارات تأتي من روسيا لتنقل هذا التراب الخصب إلى هناك. قال ذلك فأضحك الناس وتركهم يجترون هذه الذكرى وهذه المزحة.

تلك كانت مزحة في عز أيام الحرب الباردة، ولكن برودة الحرب أفرزت نكتة حارة جداً. وخوروتشوف كان يعلن عن انبهاره وعن تعطل لغته أمام هذا الانبهار، وكان يتمنى فعلاً أن لو اجتث أمريكا من غربها البعيد ووضعها في روسيا لكي يهنأ بالذهب اللين الذي يسمونه القمح وتنتجه ولاية أياوا.

وإن كان خوروتشوف قد مات دون أن يفرح بجنة أمريكا فإن ابنه لم يضيع وقت عمره الثمين في متاهات الشرق فهاجر إلى أمريكا ليكون

مواطناً أمريكياً مثلما هاجرت قبله ابنة ستالين، وصار نسل زعامات الشرق رعايا في الغرب، في أرض الحلم والانبهار.

ولم يكن من الممكن عملياً لكل روسي أن يهاجر إلى هناك، ولذا فقد قررت روسيا أخيراً أن تنقل الغرب إلى ارض الروس. وجاءت الكوكاكولا ولو كان باليد اجتثاث أياوا وشحنها إلى هناك لفعلوا. ولكنهم حينما أعجزهم ذلك سموا مبنى برلمانهم في موسكو بالبيت الأبيض تيمناً وتبركاً وانبهاراً.

ثم جاءتنا الصحف العالمية تعرض لنا صورة (يلتسين) وهو على رأس الطابور المحتفل بفتح مطعم ماكدونالد في موسكو، وكان وراءه صف بلغ طوله أكثر من الف متر. جاءوا كلهم ليتجرعوا امريكا في جرعات من الهمبورجر وليتذوقوا الكوكاكولا التي لم يقدرها ماركيز حق قدرها.

3-22 دخل الهمبورجر أخيراً إل موسكو ليعلن سيادة اللغة الجديدة، وليعلن الامبراطورية اللغوية العالمية، حيث تكون رموز هذه اللغة وشماً يطبع اجساد البشر بقبعات الكاوبوي على الرؤوس وسراويل الجينز على السيقان، والمجد لهذه اللغة التي جعلت الساذج والعادي والرديء رموزاً ذات قيمة حضارية. ولو كان الهمبورجر أكلة أفريقية، والجينز لباساً عربياً والكوكاكولا مشروباً صينياً لاكتشف العالم الرداءة فيه، ومرارة المذاق ووحشية المظهر. ولكن هذا كله يزول بلمسة سحرية من عصا الامبراطورة. وللعالم أن يقف في طوابير موسكو ليتذوق طعاماً لو بحثت فيه عن مذاق لذيذ أو عن فائدة صحية او عن نكهة طرية ما وجدتها قط. ولكن العلامة تظل إشارة حرة لا يكون معناها في جوهرها وإنما بما تنتسب إليه وما يمثل وراءها من سياق.

4-22 بهذا يكون العالم كله قد اشترك في كتابة هذه الملحمة الجديدة، وجعل من انبهاره سلماً لأمريكا لكي ترقى إلى قمة مجدها وتعلن أن لغتها هي لغة النظام العالمي، وأن طعامها ولباسها هو الذوق الانساني، وأن قرارها هو قرار الأمم المتحدة وليس الولايات المتحدة.

نحن الذين صنعنا هذا المجد لأمريكا، وكما يقول عبد الكبير الخطيبي فإن (أقوى سيطرة هي التي تجعل المسيطر عليه يصل إلى الاعتقاد بأن نقطة ومركز وأصل كلامه هو نفس نقطة ومركز وأصل المسيطر. النقد المزدوج 158).

* * *



23 شعر الرئيس

1-23 يظهر اسم (يوكيو ميشيما) على أنه رمز لضحايا الانبهار بامريكا. منذ ان أقدم على الانتحار احتجاجا على اجتياح الثقافة الأمريكية لحياة الناس في اليابان ولعقولهم. ومن المؤسف حقا أن موت هذا الكاتب راح هدراً. إذ لم يؤثر ذلك في شباب بلاده سوى أن زادهم إمعاناً في التماهي داخل النموذج الأمريكي. تماما مثلما كان الشباب الصينيون يرفعون صوراً لتمثال الحرية يعبرون بها عن مطالبهم بالانفتاح والحرية، ولم يجدوا لغة تمدهم بعلامات للحرية سوى تمثال السيدة الامبراطورة، التي صارت رمزاً للجميع ولغة للجميع، حسب ثقافة امبراطورية اللغة الجديدة.

ولقد خرج شباب اليابان في صيف 1993 م وهم يتوجون رؤوسهم بتسريحة شعر غير مألوفة في بلادهم. إنها تسريحة الرئيس بيل كلينتون.

ولاأظن سيادة الرئيس كان يحلم قط أن شعره سيكون لغة عالمية. وأظنه كان حريصاً ـ فحسب ـ على جمال مظهره واناقة طلعته. ولكن حظه كان أكبر من حدود جمجمته فصارت تسريحته شغلا شاغلا لشباب اليابان، ولأخبار الصحف وعروضات التلفزيونات.

ومثلما حصد جورج بوش ثمرة انبهار العالم بامريكا وترجم هدية العالم اليه بمصطلح مسكوك خصيصاً له هو مصطلح (النظام العالمي الجديد) فإن شعر بيل كلينتون غزا رؤوس شباب العالم واحتل أبرز واعلى ما في الأجساد الشابة.

هذا الشعر الذي بسببه تم اغلاق مطار لوس أنجليس في ذلك الصيف نفسه لكي يتم الرئيس تصفيف شعره في طائرته الرابضة في المطار على يد أحد مصففي الشعر المشاهير هناك. يحدث اغلاق المطار هناك، وفي الوقت ذاته تقوم الشركات اليابانية بصناعة (باروكة) على طراز تسريحة الرئيس وتسوقها في اليابان وغيرها من دول العالم بسعر خمسين دولاراً لكي تظهر الرؤوس كلها حتى الأصلع منها على نموذج السيد الرئيس.

2-23 إن كان هذا انبهاراً شبابياً من جهة، وطمعا تجاريا من جهة ثانية، فإن أمر الرئيس بيل كلينتون لا يقف عند رأسه فقط، ولكنه أيضا يمتد إلى اسم الرئيس بوصف (الاسم) علامة لغوية أولى هي بمثابة (الفونيم - الصوتيم) الأساس. فقد صار هذا الاسم رمزا عالميا ليس عند صناع السياسة في أمريكا وكهنة اللغة المسيطرة، ولكن عند فئات هي في أصلها من أبعد ما يكون عن النموذج الأمريكي - ظاهريا في الأقل - وهي (تنظيمات الاشتراكية العالمية).

لقد ظهر ممثلو اليسار العالمي ليعلنوا عن انبهارهم بالرئيس الفتى فقد قال أحد زعماء الحزب الشيوعي الألماني إن بيل كلينتون يكشف عن أن قضية اليسار مازالت حية وأنها لن تتلاشى. وقال رئيس البرتغال الاشتراكي إن كلينتون هو أمل اليسار الساطع.

كل هذه صفات وأمجاد تلحق وتتعلق بالرئيس الأمريكي دون أن يطلبها أو يتطلع اليها، إنها تأتي اليه كواحدة من هدايا العالم وقرابينه ونذره للسيد الجديد، ولامبراطور دولة الامبراطورية اللغوية المهيمنة.

هذا هو شمشون الجديد الذي هدم أعمدة النظام الجديد، وتصدر وجه التاريخ بتسريحة شعر الساحر، وباسمه الرمزي الذي يبعث الأمل ليس في الرأسمالية واقتصاديات السوق، فحسب، وإنما في الاشتراكية أيضاً.

هذه الاشتراكية التي غيرت قبلتها من المشرق إلى المغرب، من رموز

اليسار إلى رموز الليبرالية.

يأتي بيل كلينتون بوصفه شاباً نافس شيخاً على كرسي العالم، فخطف الكرسي من ذلك الشيخ الذي كان سيد النظام العالمي الجديد، وقيصر الفتوحات الأخيرة الحاسمة التي فتحت المعجم اللغوي العالمي لتجعل هذا المعجم يتكلم بلغة لا منافس لها، ولما أتمّ تأليف هذا المعجم واسقط كل الخصوم المنافسين، جاء هذا الشاب ليجد نفسه في ميدان مصفى، لا خصوم ولا منافسين، ووجد نفسه مثل أوديب حيث فتحت مدينة (طيبة) ذراعيها له ووهبته العرش وسيدة العرش مقابل أنه هزم الوحش بأن اجاب على سؤال بسيط جداً لم تتيسر الاجابة عليه لأي شخص قبله رغم كل المحاولات، وكل الذين سبقوه أخفقوا في معرفة ذلك الكائن الذي يمشي على أربع ثم على اثنتين ثم على ثلاث. لم يعرفوا ان هذا هو الإنسان طفلاً فرجلاً ثم هرماً يستعين بالعصا مع القدمين. لقد اجاب أوديب على السؤال البسيط المحفوظ له فغنم العرش والامبراطورية. ومثله فاز بيل كلينتون في معركة كانت بدايتها تخوف كل فحول امريكا، ولم يجرؤ احد عل منازلة جورج بوش، القيصر الفاتح المكلل بالنصر وبالنظام العالمي الجديد. لكن وحش طيبة كان ابسط من كل ذلك الجلال المحيط به، وأسهل من تلك الفخامة المهيبة. وسقط قيصر على يد هذا الشاب النضر، وتقلد الامبراطورية فتى يعد بالتغيير، ويتكلم باسم الملونين والمنبوذين والشواذ وجماعات النساء، ففرح به الشباب وتزينوا بزينته، وفرح المثاليون (الاشتراكيون) ونصبوه رمزاً مأمولاً لهم بعد أن خابت كل رموزهم.

ولم يجرؤ السيناتور مكارثي على الخروج من قبره ليحقق مع هذا المشبوه.

ويظل بيل كلينتون في مقامه الأغر كأول حرف في الأبجدية العالمية فإذا قال إن بوريس يلتسين ديمقراطي قال ميتران وميجور ومراسلو الصحف العالمية، وأساتذة العالم الثالث: نعم هو كذلك.

ومن لم يفهم فليس عليه سوى أن يدفع خمسين دولارا لباروكة شعر يابانية تجعل رأس لابسها يماثل رأس السيد الرئيس وحينئذ سيتفتح رأسه عن معاني ما عجز عن فهمه، وسيرى ما عجزت عيونه عن رؤيته، وسوف ينبهر مع سائر المنبهرين.

3-23 أمام سلطة هذه الثقافة الانبهارية، يقف الملاحظ في مأزق

نفسي حساس فإما أن يقبل بمنطق هذه الثقافة ويتعامى عن تناقضاتها وعن مفارقاتها لكي يكون منسجما مع السياق الثقافي (العالمي) ومع روح المرحلة ومزاجها، وهذا ما فعل كل من نقرأ لهم ومن نسمع عنهم من مثقفي العالم (غير الأمريكي) وأقصد هنا مثقفي الانبهار الذين اصبحوا في الواقع هم صناع هذا الانبهار، وهم من ينتجه، أو فليس من حل سوى (يوكيو ميشيما) الذي اختار الخرَوج ومغادرة المسرح بعد ان اصبحت المسرحية لا تناسبه.

اما محاولة المواجهة والاعتراض فإنها تجعل صاحبها نشازا ثقافيا في زمن الامبراطورية اللغوية. وفي البدء كانت الكلمة، وفي النهاية كانت اللغة بامبراطوريتها المهيمنة.



24 صنع في أمريكـــا

24-1 يروي جورج امادو في مفكرته (أوراق أمريكية) هذه الطرفة:

خلع الجنرال ثيابه ونزل إلى حوض السباحة وكانت عبارة (صنع في أمريكا) MADE IN U.S.A منتشرة في كل اعضاء جسمه، وحين سألت جارتي الحسناء التي كانت تدخن السجائر الأمريكية بشراهة، وتنظر إلى الجنرال بإعجاب، عن السب في انتشار هذه العبارة على مختلف اعضاء الجسم ولم لم يكتف بعبارة واحدة في مكان واحد؟ ردت علي بجدية ملفتة للنظر: هذا للتأكيد على أن جميع اعضاء جسمه أصلية وأن أيا من هذه الاعضاء لم يستبدل بعضو آخر مصنوع في موسكو مثلا. (ضد أمريكا. ترجمة حتية سحارة ومحمد الظاهر ص84).

إن ذلك الجسد الأصلي هو جسد الجنرال بينوشيه، وإن كانت هذه الصفة التي تتحلى بها هذه الصناعة الأمريكية هي من خصائص هذا الجنرال حسب مذكرات جورج أمادو فإنها ـ اليوم ـ قد أصبحت صفة عالمية، حتى إن المصنوع في موسكو اصبح أحد مفردات اللغة الجديدة، لغة البيت الأبيض، أو الرجل الأبيض. بوصفه رجلا وليس امرأة وبوصفه ابيض وليس أي لون آخر.

هذه اللغة البيضاء التي أحكمت صوتها في المعمورة، لم تكن وليدة يوم وليلة. إنها تمتد بجذورها إلى (أفلاطون) في جمهوريته وما تحمله تلك الجمهورية من مبادىء في الحكم وفي التمييز. كما أنها تمتد بما تحققه اليوم من مخترعات لغوية مثل مخترعها الأسطوري الذي تسميه (السوق).

وهذا المصطلح الذي يأتي ظاهرياً بوصفه نظاماً اقتصادياً (رأسمالياً) يقوم على حرية التجارة، وهو في حقيقته أحد اركان اللغة الجديدة، وأحد شروط هيمنتها وسيطرتها. وهو يمثل تحولاً نوعياً في تاريخ العلاقات البشرية، حيث تنتقل السلطة من الجيش إلى السوق. ولقد كان (الجيش) مخترعاً بشرياً قديماً استخدمه الإنسان لفرض سيطرته على (الآخرين)، ومع الجيش ظهرت أخلاقيات ترتبط بذلك التكوين العسكري حيث الضبط والربط والتراتب الطبقي والطاعة العمياء والخشونة والغلظة وهذه صفات سادت علاقات الغالب مع المغلوب، فكان اليابانيون يغتصبون الكوريات ويقطعون انوف الكوريين الرجال، حسب مقتضيات الجيش ومفهومه الاخلاقي. (جارودي: في سبيل ارتقاء المرأة 98).

والآن يأتي (السوق) ليحل محل الجيش ويستبدل بالأخلاقيات العسكرية أخلاقيات اقتصادية. فتحل فكرة (الاستهلاك) محل فكرة (الاستعباد) وتأتي مفردات جديدة تقتضيها هذه اللغة الجديدة.

2-24 وبما ان للجيش قوانينه فإن للسوق أيضاً قوانينه، وهذا النظام الاقتصادي الليبرالي (الرأسمالي) بوصفه مخترعاً غربياً يتحول مع اللغة الجديدة إلى مخترع امريكي مصنوع في أمريكا، وذلك من خلال الدعاية (ADVERTIZING) وفي الدعاية تصل اللغة إلى أعلى مستوياتها وتبلغ أقصى حد ممكن من استغلال طاقاتها التعبيرية والتأثيرية. وتتحول (الدعاية) إلى مؤسسة صناعية قائمة بذاتها إلى درجة أن (الدعاية) تحتاج إلى دعاية.

وكثيراً ما تسعى المؤسسات الدعائية إلى الاعلان عن نفسها وتحبيذ أفعالها وإغراء المنتجين وجذبهم إليها، وايهامهم بأنهم محتاجون إليها ومعتمدون عليها.

وهذا ما أحدث اغتصاباً جماعياً من نوع جديد. وإن كان الجنود

اليابانيون قد اغتصبوا مئات الآلاف من الكوريات والصينيات والفلبينيات، فإن لغة الدعاية تمارس اغتصابا يوميا، تغتصب فيه العقول والأذواق وجيوب المستهلكين. وذلك منذ أن اصبح التلفزيون هو المتحدث المطلق في المسائيات المنزلية، وصارت شاشته هي الصوت المهيمن بما تحمله من (اعلانات) يتفنن صانعوها في لغتها وفي إخراجها وفي مواعيد تقديمها، بحيث تضخ في رؤوس المشاهدين صورا لعالم متخيل لا يحتاج تحقيقه إلا لزيارة قصيرة إلى المتجر ودفع بعض ما في الجيب لكي تصبح البضاعة جزءاً من حياة المشتري تتدخل في سلوكياته مثلما توجه ذائقته وعلاقاته مع نفسه ومع محيطه.

بهذا تتم فهرسة المشاهد بإدخاله في نظام من التلقي والاستجابة والتصديق ثم التصرف تبعاً لمقتضيات هذه المنظومة اللغوية.

ومن هنا تصبح (الدعاية) مؤسسة سلطوية تتحكم في الذهنية الاجتماعية وتخضعها لشروط (السوق). هذا السوق الذي صار هو لغة العصر وذوقه ومقياسه الحضاري والتنموي.

والسوق يقوم على المنتجين وعلى المسوقين، وبقاء هؤلاء ونجاحهم يعتمد على المعلن الذي يتولى إحضار الزبائن بإخراجهم من بيوتهم إلى (السوق)، وإذا حضروا إلى السيد (السوق) بدأ يحدث فيهم فعله السحري والانبهاري بحيث تتحول عمليات الشراء من كونها استجابة للحاجة إلى كونها انصياعاً للمؤثر الدعائي. وأنت تشتري لا لأنك تحتاج البضاعة، ولكن لأنك مدفوع إلى الشراء ومبرمج على هذه الرغبة المستتبتة في داخلك، وذلك لكي تكون عضواً في هذا المجتمع الذي تحكمه وتتسيد فيه الدعاية، ويسيطر عليه السوق من خلال هذه اللغة السحرية، وذلك المنتج الحيوي، وهو منتج حيوي لا بوصفه ضرورة معيشية، وإنما بوصفه مفردة من مفردات التوافق الاجتماعي مع لغة السوق وضواغطه. (بودريلار ٢٠).

تشير الاحصاءات الاقتصادية إلى أن تسعين بالمائة (٩٠٪) من الامريكيين قد توحدت رغباتهم الاستهلاكية، وهذا توحد لجماعات من أشد جماعات البشر اختلافاً وتنوعاً. مما يعطي مؤشرا واضحا على سلطان اللغة الدعائية وقوة تأثيرها في تغيير الأمزجة وتوجيه الأذواق.

ومع عمليات التوحيد هذه تأتي عمليات اخرى في تغيير سلم القيم الاجتماعية حيث صارت (المتعة الخالصة) أحد الاهداف المقبولة

والمرغوب فيها، ووجدت الذات الأنانية سبباً أخلاقياً يبيح لها هذه المتعة الخالصة ويساعدها على الإغراق في الذاتية. ونسيان الآخرين.

ونشأت طبقية جديدة حيث صار الناس يصنفون انفسهم حسب ما يملكونه من منتجات حديثة.

هذه لغة السوق وأخلاق الدعاية.

وهي لغة جعلت الانتاج والانتاج هو الغاية، وبما أن الانتاج وزيادة الانتاج قد صارا أولى غايات السوق وأولى مبررات لغة الدعاية فإن اصطياد المستهلكين والاكثار منهم ودفعهم إلى الشراء والشراء والشراء يصبح شرطاً لبقاء السوق ونجاحه، ومن هنا فإن وزير خارجية أمريكا يذهب إلى روسيا في اكتوبر 1993م ليضع شروط دولته للتعاون مع الروس ويكون أبرز هذه الشروط هو تحول روسيا إلى اقتصاديات السوق.

إن امبراطورية اللغة تحتاج إلى مزيد من السدنة والاتباع والمريدين لكي تظل اللغة منتجة ومنتجة ومنتجة.

وبما أن (السوق) قد بلغ مرحلة اللاعودة ووصل ذروة طاقاته فإن وسيلته إلى الاستمرار هي في تمديد حدوده وتوسيع دوائره ولقد بلغ الأمر حداً صار معه انتاج السيارة وصناعتها أسهل من تسويقها (بودريلار)، ولذا يلزم فتح أسواق جديدة، ويلزم قيام لغة دعائية ضاربة والمجد للسوق ولامبراطورية اللغة.

* * *

25 اسمها التفاحة

25-1 في عام 1626م جاء وجيه هولندي اسمه بيتر مينوت (MINUET) وحل على الساحل الشرقي من أمريكا، وتعلقت نفسه بجزيرة خضراء تتمدد وكأنها حسناء تبسط جسدها على ضفاف المياه المحيطة بها. وقد تبدت الجزيرة وكأنها تفاحة كبيرة، تحركت لها احاسيس الرجل الأوروبي وراح يفاوض شيخ القبيلة الهندي ويساومه على هذه الارض العذراء، وعرض عليه بعض مجوهرات من الأحجار الكريمة تبلغ قيمتها ما يعادل أربعة وعشرين دولاراً مقابل ان يتنازل الهندي عن هذه الجزيرة، ويترك التفاحة للرجل الأبيض.

وتمت الصفقة، وراح الهندي الأحمر فرحا بالمجوهرات، وانصرف الأوروبي بتفاحته اليانعة. واطلق عليها أسما يربطه بالأرض القديمة فسماها (نيو امستردام).

ويمر الزمن ويستعمر الأبيض التفاحة ويشحنها ببني جنسه إلى أن يسيطر عليها الانجليز، ويتولى امرها أحد وجهائهم (ديوك أوف يورك) فيتغير اسم التفاحة، ويصير (نيويورك) كوسام شرف لحاكمها وسيدها.

تلك هي نيويورك، هذه التفاحة الكبيرة، التي كانت بضاعة مزجاة

بين رجلين لعب كل واحد منهما على الآخر. ولقد ظن الهولندي أنه قد خدع الهندي بهذه الصفقة، بينما كان الهندي يبيع ارضا لم تكن تخصه، حيث إنها قد كانت جزيرة مشاعة قد تركت للصيد، وكان من الممكن للهولندي ان يأخذها بلا مقابل، ولكنه دفع مجوهرات بخسة وفرح بالمقايضة المربحة.

إن كانت هذه هي حكاية هذه المدينة في بدايتها فإنها - ولا شك - قد ظلت تطبع كل قصصها وحكاياتها، وتصنع مفردات تاريخها. فهذه الجزيرة/ المدينة قد أصبحت علامة تجارية وثقافية على اللغة الجديدة، لغة السوق. وأصبحت نيويورك بمثابة المعجم اللغوي الذي يحدد معاني المفردات ويؤسس سياقات لغة السوق، ويفسر رطانته.

والتبدلات في هذه المدينة ليست سوى تكرار للتبادل الاسطوري الأول بين الشيخ الهندي والمغامر الأوروبي، حيث ما تزال هذه التبادلات تحدث بين طرفين يظن كل واحد منهما أنه قد ضحك على الآخر، وأخرج منه مكسباً لم يكن في الحسبان لولا لعبة الذكاء ومهارة الحيلة، وكل ذلك يحدث ـ إذا ما حدث ـ من دون أي إحساس أخلاقي. فالذكاء والحيلة يبرران العملية مهما كانت الصفقة مجانبة لخلق الصدق والأمانة. وهذا هو الاساس الدلالي الذي يقوم عليه المعجم اللغوي للسوق الذي صارت نيويورك علامة عليه ورمزاً له ومقراً لولاداته ومبتكراته.

هذه هي التفاحة التي هبطت بالانسان من فردوسه الى أرض المنافسات والمكابدات وإلى سلطان الحيلة، ولغة الدهاء والمخاتلة.

2-25 «كان يقال إن هذه البوتقة التي لا تكل

تتلقى كل ما يسقط فيها لتحوله

خلال أربعة أسابيع الى شيء مميز

كل الأجناس التي رست على هذه القارة الممتعة

تخلت بلهفة عن نفسها ونسيت أعمق خصائصها

* * *

فقد أشاع سكان نيويورك فيما بينهم
أن مدينتهم بنيت على الصخر ومن ثم
لا يمكن تدميرها.

هكذا تكلم برتولد بريخت (قصائد بريخت ص 87/4) عن هذه المدينة المغروسة في عيون العصر بما أنها التفاحة الكبيرة، أكبر ما شاهد الناس من الفواكه المغرية. هذه التفاحة التي تجعل طاعميها يتخلون بلهفة عن أنفسهم وينسون أعمق خصائصهم ليكتسبوا خصائص جديدة تجعلهم من مفردات المعجم اللغوي الضخم، معجم التفاحة والسوق الحر، سيد اللغات وسلطان الثقافات.

هذه التفاحة الاسطورية التي لا تحتاج سوى أربعة أسابيع كي تحول البشر الى أشياء متميزة مثلما حولت الهولندي المغامر الى مستثمر ومضارب تاريخي.

هذه التفاحة الساحرة التي لا تكتفي بأن تسحر عاشقيها ومريديها بل إنها تمسخهم أيضاً. وتقيد خطاهم، ولذا فإن الداخل إليها مفقود، والخارج منها مفقود. أيضاً ..

وهي لذلك تنشطر من داخلها الى مدن والى عوالم والى تفاحات فيها الصغير والمتعفن مثلما فيها الكبير والمتجدد.

ومثلما كان في قلب مدينة برلين جدار يفصل بين ايديولوجيتين وعالمين متمايزين، وهو جدار محسوس وقائم، فإن في نيويورك جداراً أعرض وأسمك. وهو جدار يقوم ما بين هارليم ووول ستريت. إنه حائط سميك وطويل وعميق. جدار نفسي واقتصادي وثقافي. له لون وله تاريخ وله نفسية وله شخصية وهوية قائمة ومتنامية. يفرق بين جنس وجنس ولون ولون ورصيد ورصيد وثقافة وثقافة وهموم وهموم.

جدار شاهق الطول بليغ العمق لا يجتازه سوى أهل المواهب الخارقة والحظوظ الضاربة، أو اللصوص المهرة، أو السواح المبهورين الذين يرون ما لا يرى ويشاهدون ما لا تصدقه العيون ولا يهجس به الخيال.

هذه التفاحة الساحرة التي تبدع ما فوق المتخيل، وتمنح ما هو فوق المتصور، تأتي أيضاً في وجه آخر لتمنع وتحجب وتحرم ما هو هين سهل عند غيرها من مدن المعمورة. إنها المدينة التي لا مدينة مثلها وهي

التفاحة التي لا تفاحة مثلها.

25 ـ 3 على مشارف الرؤية من نيويورك ينتصب تمثال الحرية بوجه سيدة أوروبية بيضاء تنظر شاخصة بعينيها باتجاه الوطن الأم (فرنسا) وتمنح ظهرها لأمريكا، وبهذا الوجه وبهاتين العينين تستقبل القادمين الى أرض التفاحة الكبيرة، ويقف الناس صفوفا لكي يدخلوا الى جوف السيدة، وكأنهم بذلك يعودون الى رحم الأم، فيدخلون الى الرحم المعدني ثم يخرجون منه، بعد أن يكونوا قد اختلسوا نظرات عبر وجه السيدة نحو البحر المحيط وشواهق العمارات التي تطرز جبين التفاحة.

ويخرج الناس أفواجاً ـ بعد ذلك ـ من جوف السيدة، وكأنما يحملون صكوك ميلاد جديد يجعلهم أبناء هذه السيدة الحديدية (البيضاء)، وينعمون بعد ذلك بحريتهم المعدنية، ويمتطون السفينة عائدين الى نيويورك يبسطون أيديهم وقلوبهم ويسرحون أقدامهم في هذه الأرض، حيث يتخلون بلهفة عن أنفسهم وينسون أعمق خصائصهم بعد رحلة التعميد الدورية، عبر جوف السيدة المعدنية.

يبقى المال..

وتبقى السلطة..

وتبقى الملذات..

ومن وراء ذلك كله جدار طويل ما بين وول ستريت وهارليم. وما بين مبنى الأمم المتحدة وأطفال أفريقيا وفتيات البوسنة.

والمجد للسيدة الخرساء والرحم المعدني.

* * *

26 الجريمة بوصفها لغة

26-1 تظهر أمريكا بوصفها (امبراطورية اللغة) تظهر قوية ومتماسكة وكأنها حقاً بلد الحلم البشري أو هي الفردوس الأرضي - كما سماها المكتشفون الأوائل.

ولكن هذه الصورة المتماسكة ليست سوى الوجه الخارجي فحسب، وفي الداخل تأتي تكسرات وتهشمات كثيرة هي بمثابة لغة داخل اللغة. أو لهجات داخل اللغة الرسمية. أو ربما نقول إنها مثل اللحن اللغوي والشذوذ التعبيري. غير أن هذا اللحن صار يزداد ويتزايد حتى بدأ يحدث اختراقات فادحة في النص الدرامي الأمريكي. وبدأ الممثلون يخرجون عن النص كثيراً. وخروجهم يأتي على صورة موت وانتحار وقتل واغتصاب واغتيال. وأمريكا التي لم يواجهها أحد قط من خارجها صارت تنزف من الداخل نزيفاً قاتلاً، ولقد قتل عدد من رؤسائها بأيدي مواطنين من أبنائها. وعدد القتلى في عام 1992م بلغ أربعة وعشرين ألف قتيل، ماتوا بسكاكين ومسدسات أمريكية، فالأمريكي يقتل الأمريكي في شوارع أمريكا وفي بيوتها. وهؤلاء المقتولون في عام واحد يعادلون ضحايا أمريكا في حرب الخليج ستين ضعفا.

هذا لحن يفسد قواعد اللغة ويهشم النص.

لقد كان أوديب الأسطوري واحداً، حيث قتل أباه خاطئاً غير قاصد وكان ضحية قدر محتوم حكم عليه مثلما حكم على أبيه. أما أوديب أمريكا الجديد فهو متعدد ومتعمد ويمارس قتل الأب بضراوة لا هوادة فيها.

إن السلطة تفرز عقاربها، والتفاحة تفرز من البكتيريا ما يكفي لإفساد كل تفاحات المعمورة. ومن هنا فإن (الجريمة) في أمريكا لا تأتي بوصفها نقداً للأوضاع أو معارضة للنظام، ولكنها تأتي من حيث هي أحد أعراض هذا الوضع الملحمي.

يقول أكتافيو باث عن ذلك:

«إن المنظور الروحي للغرب يدعو الى الحزن، فالسائد الآن هو الابتذال والسطحية، وانبعاث الخرافات، وانحطاط العنصر الشهواني والتلذذ في خدمة التجارة والحرية التي تحولت الى قوادة لوسائل الاعلام. ومع ذلك فإن الارهاب ليس نقداً لهذا الوضع، وإنما هو أحد أعراضه. فازاء نشاط المجتمع الذي يمضي شبه نائم، وهو يدور آلياً حول انتاج الأشياء بصورة لا تنقطع، نجد الارهاب يعرض نوعاً من الخبل لا يقل سكوناً وإن كان أكثر هدماً. زمن الغيوم ص 29 ».

هل هي مسابقة باتجاه الهدم، هدم المنظور الروحي، هذا النظام الذي تبنيه اللغة الاعلامية لتجعله وعداً خارقاً لطالبي الهناءة الذاتية، فيتحول من حافز انتاجي للمصانع الى حافز تدميري لهواة الاجرام..؟!

2-26 تطغى أدبيات العنف على وسائل الاعلام الأمريكية حتى لقد أصبحت لغة الجريمة ومفرداتها من أبرز المواد الاعلامية كل يوم وكل ليلة. فالأخبار السياسية تقوم على العنف حيث يتم حل مشاكل العالم بالدبابات والصواريخ. وأفلام التسلية تعتمد العنف كأحد وسائل الصناعة السينمائية وأحد أساسيات الحبكة الدرامية، وأبرز تحديات فنون الاخراج وتقنيات الصنعة. ويتجاوب مع ذلك ما يرد في النشرات المحلية من أخبار عن المحصلة اليومية من حكايات الجرائم الفردية في الشوارع المجاورة والمحيطة بالمشاهدين.

في السنوات الماضية (في الستينيات) كان في أمريكا غضب منظم يتجلى في الغضب السياسي متمثلاً بحركات السود في الجنوب وفي الشمال (متشجن وديترويت) حيث انتفض السود ضد القهر الاجتماعي

والسياسي، مثلما خرج طلاب الجامعات يعبرون عن غضبهم على النظام واعتراضهم عليه.

وكان بجانب ذلك نظام اجرامي محترف يقوم على جماعات منظمة تعرف أهدافها وتجيد الوسائل الى ذلك، ومن خلال هذين النظامين: الغضب المنظم والاجرام المنظم، كان عامة الناس يعيشون حياتهم بحدود واضحة ما بين الأمان والخطر.

ولكن ذلك كله اختفى مع الزمن، حتى لم يعد الآن أي نظام للمعارضة السياسية حتى كأن لا وجود لها. ولم تعد الجريمة كذلك منتظمة في نسق معروف. فزالت بذلك الحدود بين الأمان والخطر. حتى لقد صار المجتمع كله تحت عنوان كبير يتمثل فيه الخطر كأبرز علاماته، ويتعرض الأطفال والنساء الى تهديد يومي متصل. ولا يسلم القوي ولا مجال للتحصين ضد هذا الخطر، فالقتل العشوائي صار بعض ما يمكن توقعه وحدوثه في أية لحظة، ولم يعد بالشيء الغريب أو الشيء الذي يمكن تجنبه.

لقد تحول الفردوس الأرضي الى جحيم، وصارت الحدائق الغناء والغابات المعشبة مراتع للموت والاغتصاب. وصارت كلمة (الاغتصاب) أهم مفردة في المعجم اليومي للنساء في أمريكا.

26-3 تكتسب الجريمة في أمريكا صفات النص الابداعي. فهي تقوم على التفنن الابداعي والتفرد الاعجازي، وكل جريمة مبتكرة تحدث تأثيرا يشبه تأثير النص الابداعي الخارق، فيجري تقليد النص ومحاكاته ويتسع هذا التقليد. فإذا تعرض أحد المطاعم إلى عملية اطلاق نار عشوائية تنتهي بقتل الزبائن ثم انتحار القاتل فإن هذه العملية ذاتها تتكرر في فروع هذا المطعم ذاته في أماكن متنوعة وفي أوقات متتالية. حدث هذا لمطاعم مكدونالد في السنوات العشر الخالية، بينما لم يتعرض أي مطعم آخر لمثل هذه الحوادث، ذلك لأن النص الأصلي قد استهدف ذلك المطعم بالذات فجاءت المحاكاة مطابقة لشروط الإبداع الأول.

ويتعرض السواح الأجانب ـ الآن ـ في أمريكا الى عمليات قتل يكرر بعضها بعضاً بدءاً من فلوريدا حيث النص الابداعي الأول، الى كافة الولايات حيث نظام (المحاكاة) وشيوع مفردات النص ولغة الخطاب المبتكر.

يموت السواح قتلاً على أيدي أفراد مجرمين وكأن أمريكا تعلن بلسان فصيح عن رفضها للآخر الخارجي، تماماً مثلما كانت القبائل البدائية تقتل الطارئين عليها وتسلب أموالهم.

لقد صارت الجريمة علامة من علامات الحياة الأمريكية، تواطأ عليها الوعي العام ورضي بها، وعرفت أمريكا بهذه العلامة. حتى إنها لم تعد عجباً أو معجباً يثير الأسئلة أو القدح.

وسواء شاء الأمريكي أم لم يشأ فإن الجريمة قد اصبحت لغة داخل اللغة، وأصبحت علامة فارقة تميز المجتمع الأمريكي وتخصه. وليس لأنها لغة اعتراض واحتجاج على النظام، وإنما لأنها وجه من وجوه التنوع العريض، لأنها أحد نصوص الملحمة الكبيرة.

وما كانت الجريمة في أمريكا - قط - في أي ماض من ماضيها تعبيرا سياسياً اعتراضياً. سواء الجريمة المنظمة أم الفردية، ولم تكن عصابة المافيا تمثل خطاباً سياسياً واجتماعياً اعتراضياً أو احتجاجيا. ولم تكن نقداً للنظام ومؤسساته وفلسفته، وإنما كانت تنظيماً يقوم على عناصر المصلحة والكسب والسلطة، تماماً مثل العقلية التجارية التي تحكم نظام (السوق) لولا أن أباطرة السوق يكتفون بالدهاء والحيلة كوسائل لتحقيق الغايات، بينما تسمح المافيا لنفسها باستخدام وسائل اضافية تختصر لها المسافة والمدة وتعجل بالنتائج. وكذا حال الجريمة الفردية وما ترتبط به من تحقيق سريع للمتطلبات الفردية المادية والإمتاعية.

لذا تأتي الجريمة في أمريكا لا بوصفها لغة مضادة - أو لغة نقدية اعتراضية - ولكنها - فحسب - لغة داخل اللغة، ولهجة مصاحبة تتناغم مع شروط الدراما ونظام الحبكة وايقاعات النص.



27

تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين

❖ يروي أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار (ص170 ـ 171) حادثة واقعية عن ثقافة الصليبيين وذهنيتهم البدائية، فيقول: «ومن عجيب طب الصليبيين أن صاحب المنيطرة[1] كتب الى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى! قال: أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة، وامرأة قد لحقها نُشَاف[2] فعملت للفارس لُبيخة، ففتحت الدملة وصلحت، وحميت[3] المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب افرنجي، فقال لهم: هذا ما يعرف شيئاً يداويهم. وقال للفارس: أيما أحب اليك، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين..؟ قال أعيش برجل واحدة. قال أحضروا لي فارسا قويا وفأساً قاطعاً، فحضر الفارس والفأس ـ وأنا حاضر ـ فحط ساقه على قِرْمة خشب كبيرة. وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة

---

(1) المنيطرة: قرب نهر ابراهيم في شمالي لبنان.

(2) نشاف: كلمة فارسية تعني، البله.

(3) من الحِمية.

تقطعها، فضربه ـ وأنا أراه ـ ضربة واحدة، فما انقطعت، وضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته.

وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها، فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم، الثوم والخردل، فزاد بها النشاف.

فقال: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسى وشق في رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس، وحكه بالملح فماتت في وقتها.

فقلت لهم: بقي لكم إلَّي حاجة..؟

قالوا: لا.

ويختم أسامة بن منقذ حكايته بالتعليق التالي:

(وكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا(*) وعاشروا المسلمين)

لم أستفتح المقالة بهذه الحكاية من أجل التذكير بمصائر الثقافات وتقلب الحضارات، ولا للتعرض للماضي البدائي للإنسان الغربي، ولكنني استحضرت الحكاية بسبب جملتها المركزية في سؤال الطبيب الافرنجي لمريضه: تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين. ولقد اختار المريض العيش بالواحدة وكان اختياره هذا سبباً لموته.

كان الفارس المريض يمثل الوضع الطبيعي للنظام ـ أي نظام ـ من حيث إنه يسير برجلين اثنتين. وحينما تنازل عن هذا الشرط الطبيعي اختل النظام فيه وانتهى نهاية متوقعة من ناحية وتراجيدية من ناحية أخرى.

وكم تتراءى لنا صورة أمريكا ـ اليوم ـ وكأنها تشبه حال ذلك الفارس الصليبي القديم.

لقد كانت أمريكا على خيار بين أن تعيش السلام برجل واحدة، أو تعيش الحرب الباردة برجلين. ولقد كانت مرحلة الحرب الباردة أقرب ما

(*) تبلدوا تعني أنهم سكنوا البلاد، اي سكنوا بلاد المسلمين وتخلقوا بأخلاقهم واخذوا بحضارتهم

تكون الى الوضع الطبيعي تاريخياً وسياسياً، حيث كان وجود الخصم القوي بمثابة الحافز الحضاري والثقافي، وبمثابة العين الناقدة والفكر المحرض، وكان لذلك فوائده الايجابية على أمريكا نفسها ـ مثلما كان مفيداً للعالم الثالث ..

كانت أمريكا تحقق مكاسب ثقافية وعلمية بسبب تلك المنافسة، وكانت تشحذ قرائح علمائها وسياسييها لمواجهة التحدي المتواصل من المنافسين الأقوياء ومن الخصوم المتربصين والمبارزين.

وكان العالم الثالث ينعم بلعبة تشبه لعبة الدلال عند الأطفال حيث يفرون الى أمهم إذا خافوا من أبيهم، ويستدرون عطف أبيهم إذا بخلت عليهم الأم. ولقد كان لذلك أثره في توازن الكرة الأرضية، وفي تقاسم الأدوار وتوزيع التوترات.

كان ذلك كله حينما كانت أمريكا برجلين وتعيش في حرب تسمى الحرب الباردة، لأنها حرب أفكار وعقول ومصارعة أفكار وفلسفات. ولكن أمريكا اختارت أن (تعيش) برجل واحدة. كحال الفارس الصليبي. وهذا خيار تبدو عليه مظاهر الكسب والفوز، ولكنه في حقيقته خيار تراجيدي.

لقد قررت أمريكا أن تعيش برجل واحدة وذلك بتصفية المنافس (الخصم) الخارجي من جهة، وتصفية المعارض الداخلي من جهة أخرى.

ومثلما أن أمريكا اليوم بلا خصوم (أقوياء) في الخارج فإنها أيضا بلا معارضة سياسية (واضحة وقوية) في الداخل. وهذا جعلها سلطة مطلقة، لا تقوم على الدكتاتورية كما هو معهود في السلطات التقليدية المطلقة، وإنما تقوم على (الأنانية) و(الفردية) و(تصديق الذات) ومركزية (الأنا).

هذه هي صورة النظام السياسي في أمريكا اليوم، وهو نظام يصنعه ويتحرك به البيت الأبيض، بوصفه داراً ودائرة للرئيس والكونجرس (مع مجلس الشيوخ) حيث يقف الحزبان السياسيان على (رجل) واحدة، لا تختلف قفزاتها ولا مواطئها على الأرض. وليس هنا في حقيقة الأمر تعارض جوهري بين رجال الحزبين، على العكس مما هو قائم في بريطانيا أو فرنسا مثلاً، حيث التعارض الواضح ما بين المحافظين والاشتراكيين، مع وجود فواصل جلية بين يسار ويمين ووسط.

أما في أمريكا فليس هناك يسار بكل تأكيد ولم يكن في تاريخها كله

موقع لليسار. ولقد كان اليمين الأمريكي واضحاً وجلياً حينما كانت أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي بوصفهما كتلة يسارية قوية. أما وقد اختفت هذه الكتلة فإن اليمين الأمريكي لم يعد يميناً. إذ لا يكون يمين إذا لم يكن في مقابله يسار.

هكذا تتحول أمريكا الى فارس برجل واحدة، ويختفي الصوت المعارض والصوت الناقد، وهذا ما جعل الروائي أوكتافيو باث ينعي على الغرب اختفاء النقد من خطابه الراهن (المرجع السابق ص21) وسكوت كل صوت غير صوت الذات صاحبة السلطة المطلقة والحكمة القاطعة، حيث تكون (نهاية التاريخ) ويأتي الرجل الأخير مع فوكوياما، ولكنه برجل واحدة وبعين واحدة وبلسان واحد.

هذا خيار اتخذته أمريكا لنفسها ودفعت بالعالم نحوه وفرضت قبوله والرضى به داخلياً وعالميا.

هذا فارس برجل واحدة ..!!

* * *

28 هي مكسيكية وأنا أبيض

28-1 هي أغنية شعبية أمريكية، تروي قصة حب وأدها العرف وقتلتها الثقافة، هي عن رجل أبيض عشق فتاة مكسيكية، ولم يكن لهذا الحب من أمل في مواجهة الثقافة التي تميز بين الألوان، وتجعل اللون عرقاً وهوية، ولا يسعها التسامح مع العنصر الأقل ذي اللون المختلف، وانتهى الحب موؤوداً، وبقي منه هذه الأغنية التي تبث شكواها وتكشف عن ثقافة المجتمع وصلابة حدوده وفواصله: هي مكسيكية وأنا أبيض.

تأتي الحدود لتفصل بين جنس وجنس بناء على لون البشرة. لأن الأصفر والأسمر وصاحب اللون المخلوط ليس بمنزلة الأبيض، وعلى النجار أن يظل نجاراً ولو خرج عن ذلك اضطرب المجتمع، مثلما أن العبد لا يمكن أن يصبح سيداً. هذا ما يقوله افلاطون في جمهوريته، ولذا فإن المكسيكية لا يمكن أن تكون زوجة لرجل أبيض. وعلى حب كهذا أن يموت وله ـ فحسب ـ أن يبقى حكاية اسطورية يرددها المغني الشعبي ليؤكد بترديده هذا أن الحدود أقوى من العواطف. فاللون جنس وثقافة، به تتقرر الفواصل وتنشأ الحدود.

28-2 لم يكن اللون يمثل علامة عرقية أو ثقافية في أمريكا، الى أن

جاء الرجل الأوروبي جالباً معه اللون الأبيض واللون الأسود.

جاء الأبيض سيداً، وجاء الأسود عبداً. جاء الأبيض غازياً وفاتحا يحمل معه ارادته واختياراته وطموحاته. وجاء الأسود مكبلاً بالسلاسل مأسوراً لا يملك خياراً وليس بين يديه طموح، بعد أن ضاعت منه معالم الطريق وعلامات المكان، إذ ليس في ذهنه أية علاقة بين أرضه التي كان فيها - هناك في الفضاء البعيد - وهذه الأرض التي حل فيها. لا يملك أية معرفة عن المكان ولا عن الأسباب، ولا يملك أية وسائل للخلاص أو العودة. حتى لو حدث أن قال رجل أبيض لأحد السود اذهب فأنت طليق، فإن ذلك لا يعني للأسود سوى مزيد من الضياع. والعبودية أرحم من هذا الضياع.

هنا نشأت في أمريكا علامتان بارزتان: أبيض وأسود، إنهما لغتان مختلفتان، ولكل واحدة منهما معجمها الخاص، وحدودها الواضحة. وما اشد الشبه هنا بين أمريكا وجمهورية أفلاطون، حيث السادة من جهة والعبيد من جهة أخرى، وحيث النظامان الصارمان اللذان لا يمكن التداخل فيما بينهما. لقد أشارت الاحصاءات التاريخية عن المجتمع اليوناني، أن عدد العبيد بلغ أربعمائة ألف رقيق، في مقابل مائة ألف مواطن حر. (أي أن كل مواطن حر كان يستمتع بعمل أربعة أرقاء في المتوسط، ولم يكن هؤلاء الأرقاء يستخدمون في الخدمة المنزلية وحدها. بل كان منهم الزراع والرعاة، ولكن استخدامهم الأكثر شيوعاً كان في مجال الحرف والصناعات اليدوية واستخراج المعادن. وكان الصناع المهرة، إذا تيسرت أحوالهم، يشترون العبيد ويدربونهم على أداء أعمالهم آملين أن يجيء اليوم الذي يتسنى لهم فيه أن يتقاعدوا ويعيشوا على عمل هؤلاء الأرقاء. وقد تحدث سقراط عن العبيد وربط بينهم وبين الأرض والعقار بوصفهم مصادر للدخل الذي يأتي بلا عمل. فؤاد زكريا دراسة لجمهورية أفلاطون ص86).

إن كان هذا هو وضع المجتمع الأثيني في القرن الرابع قبل الميلاد، فإن الصورة تتكرر عبر ادخال اللونين الأبيض والأسود الى أمريكا، حيث يأتي السيد ومعه عبيده، ويتم فتح الأرض التي هي الفردوس الأرضي، حسب تعبير كولومبوس لكي تكون فردوساً لأحد الألوان ومعتقلاً جهنمياً للون الآخر.

28-3 هكذا وجد السود أنفسهم في معتقل كبير، لا يعرفون كيف

وقعوا فيه، وكيف دخلوا إليه. ولذا فإنهم لا يعرفون كيف يخرجون منه، والى أين يفرون. لقد صار المكان مغلقا عليهم منذ أن كانت ظروف أسرهم واختطافهم من بلادهم الأصلية، ثم طرائق تجار الرقيق في تغليف المخطوفين وتعليبهم داخل ظلمات محكمة مما جعلهم يفقدون الصلة بالمكان والمسافة والاتجاهات ـ كما وضحت وكشفت لنا رواية (الجذور) لألكس هيلي ـ فصاروا إلى مصير لا يعرفون عنه شيئاً، ودخلوا في هذا المعتقل المقطوع عن أي وسيلة ارتباط مع المكان السابق ـ والزمان السابق ...

هنا صاروا حيث لا مفر، وحيث العبودية التي لا مخرج منها. فما الحل إذن..؟

لم ينقطع الأسود عن المكان فحسب، ولكن انقطع أيضا عن لغته وعن دينه وعن ثقافته. وحاصره الرجل الأبيض حصارا تاما، حاصره بالأرض وبالثقافة وبمصدر الحياة والبقاء.

من داخل هذا الحصار راح الأسود يتحرك بارادة السيد وامتنعت عليه سبل الانعتاق. وصار أمام خيار حاسم: إما الاستسلام والرضوخ وإما الموت. وليس بالامكان غير هذين الخيارين.

ولكن الأسود بوصفه بشراً يملك كل ما يملكه البشر الآخرون من الحس والطموح، راح يحاول فك قيوده. وتعلم من مأزقه هذا بعض الحكمة التاريخية والحضارية المثيرة، وهي أن يناضل من داخل السجن حينما أعجزه أو استحال عليه الخروج من المعتقل.

فقد الأسود لغته ودينه وأرضه، ولم يجد أمامه سوى لغة الأبيض ودين الأبيض، وهذه الارض التي تمكن منها الأبيض وسيطر عليها.

وبدلاً من أن يعيش الاسود أخرس بلا دين وبلا أرض، راح يتبنى اللغة والدين وتقبل هذه الأرض التي لا يعني جمالها وبهاؤها الخارق لهذا الأسير شيئاً سوى أنها ضرورة قسرية لمعاش قسري.

أخذ اللغة البيضاء وحولها الى انجليزية سوداء، وأخذ دين الرجل الأبيض، وحوله من خلال الحركة والصوت والانفعال وتوترات الجسد وتنهدات الترجيعات الصوتية وراء الخطيب، حول الدين الى حركة تعبيرية تتكلم بمشاعر الإنسان الأسود وتنفعل بتحركاته وألوانه. وصارت الكنائس السوداء أرضاً داخل الأرض وفضاء داخل المعتقل مثلما صارت

اللغــة علـى لســان الرجـل الأســود ذات لـون وصـوت مختلـف يختلـف في مفرداته وفي استعاراته وفي تركيبته النحوية والصوتية.

وصنع الأسـود ألوانـه الخاصـة وموسـيقاه الخاصـة، وبذا صـار اللون ثقافة ولـم يعد مجرد علامـة فارقة، وصـار اللون تعبيرا ولغـة، بعد أن كان سجناً.

قـام الأسـود بتهشـيم السـجن من الداخل، حينما تولـى تقويض اللغة البيضاء، وهذا علامة على نضاله ضد المستعمر وضد السلطان السيد.

وفرض نفسـه بوصفـه شـعبا (آخر) مختلفـا، حيث اخترع لغـة يعبر بواسـطتها عن نفسـه: عن وجوده وعن اختلافـه. هـذه لغتـه الخاصـة، بها ومنهـا تنشـأ الذات (الأنـا) السـوداء بخصوصيـة تكسـر سـلطان المتسلط، وتخلق للذات أرضـاً فـوق أرض الرجـل الأبيـض ومعبـدا مـن داخـل معـابد البيض، وموسيقى من داخل معازف السادة.

تعلـم الأسـود أنـه لكي يتعامل مع سـجانه الأبيض لا بد أن يتعلم لغة (سـلاح) هذا السـجان، فتعلمهـا. وكـان هـذا التعلم بمثابـة الاستسـلام والاندماج الثقـافي، غير أن الأسـود تدخل مع هذه اللغة وتصـرف فيها الى أن صنـع من داخلها لغـة تخصـه ـ لغـة من داخل اللغـة، إنهـا فردوس من داخل الجحيم. تعلم السـود كيف يتعـاملون مع الظـرف فـابتكروا وجودهم داخل العبوديـة، تحرروا في وسـط المعتقل. إنها حكمـة سـوداء لـم يكتشفها الأبيض، ولـم يتعرف عليها أفلاطون في جمهوريته.

* * *

29 سجن اللغة

1-29 في عام 1957 م جلب العلماء نحلاً افريقيا الى البرازيل لأغراض الدراسة والبحث. وفي عام 1993م وجد الأمريكيون في الولايات المتحدة أنفسهم في مواجهة مع أحفاد النحل الأفريقي الذي انتشر في أمريكا وأخذ يهدد حياة الناس حتى لقد مات رجل من لدغة إحدى النحلات، وهو من نوع (النحل القاتل). ولم يعد أمر مواجهته ومحاربته بالأمر السهل، فهو منتشر في كل مكان، ومختلط بغيره من أنواع النحل الأخرى. وكل محاولة لرشه بالسم سوف تقتل معه النحل الأمريكي المنتج للعسل. ولم يعد أمام العلماء سوى أن يحاولوا ترويض هذا النحل، بواسطة التدخل البيولوجي، بعد أن تيقنوا أن هذا النحل القاتل باق معهم وأنه سوف يتكاثر شاءوا ذلك أم أبوا. لقد جلبوه من دياره قسرا وطغيانا وأخذ يتناسل في أرض المهجر، واستوطن هذه الأرض ونما فيها، واختلط بغيره من الأجناس، حتى صار جزءاً من قاطني هذه البقاع.

هذه حالة تشبه حالة السود الأفارقة الذين جلبهم الرجل الأبيض الى امريكا لأغراض نفعية ولكي يكونوا مصادر لدخل يأتي بلا عمل. كما هم عبيد أثينا. فتكاثر الأفارقة وتناسلوا الى أن أصبحوا نحلا قاتلا يلسع من يؤذيه ويدافع عن نفسه. واختلط بالناس والأرض حتى صار أمر

التخلص منه محالاً. وكل محاولة للمساس به سوف تمس الجنس الأبيض أيضاً. وكما أن أمريكا الآن لا تستطيع التخلص من النحل الأفريقي فإنها أيضاً لا حيلة لها مع هذا الشعب الأسود الذي كبر ونما حتى صار وجوده إحدى العلامات الثقافية والحضارية لأمريكا.

2-29 وكما أن العلماء الآن يحاولون ترويض النحل الأفريقي فإن أمريكا سعت في الماضي الى اعادة صياغة الإنسان الأسود حسب ثقافة الأبيض فجعلته يغير دينه، كما تشير رواية الجذور حيث تحول الأفارقة من دينهم الأصلي وهو الاسلام الى النصرانية، وتكلموا بلغة السيد، وتخلقوا بعاداته. وظلوا على هذه الحال، الى أن اكتشفوا علاقات المكان وعرفوا الرابط الجغرافي بين مهجرهم وموطنهم الأصل. وكانت هذه معرفة مفقودة، إذ لم يكن السود يعرفون موطنهم الأم، وكانوا قد فقدوا الصلة مع جذورهم، وانقطع فيهم المكان.

ولما عرفوا علاقات المكان وروابطه بدأت تعود إليهم جذورهم، وصار عند كثير منهم محاولات للعودة لحضارة الإنسان الأسود، فاستعادوا دينهم، واستعادوا لباسهم، واستنبتوا لأنفسهم مصطلحا جديدا يصف حالهم التي هم فيها، وهو مصطلح (الأفارقة الامريكيين Afro Amiric-ans)، حيث الاشارة الى الأصل التاريخي الحضاري والى الواقع الراهن. إنهم أفارقة وإنهم أمريكيون، في الوقت ذاته. وعلى قدر واحد.

3-29 من الممكن للمرء أن يستعيد دينه وأن يستعيد لباسه، وكأن هذه عملية اكتساء بعد تاريخ طويل من التعري المعنوي والجسدي الذي يحيل الى زمن الضياع ونسيان علاقة المكان وروابط الجغرافية. ولكن الذي لم يتمكن الأفارقة الأمريكيون من استعادته هو (اللغة).

ربما لأن اللغة تمثل أرقى حالات الاختلاف وأشد حالات الانفصال والاستقلال. وهم لا يريدون، ـ أو لا يستطيعون ـ الاستقلال عن المجتمع الأمريكي.

إنهم مختلطون ومتداخلون مع هذا المجتمع لدرجة أن الأبيض لا يستطيع أن يتخلص من هؤلاء الأفارقة، كما أن الأفارقة لا يستطيعون التخلص من الأبيض. ولذا ظلت اللغة الانجليزية هي لغة الأفارقة الأمريكيين.

لقد صارت اللغة قيداً شبه أزلي يحاصر الإنسان الأسود في أمريكا ويستحوذ عليه، وتظهر اللغة الانجليزية وكأنها الخيار الوحيد، الذي لا خيار سواه أمام الأفارقة الأمريكيين. إنها التعبير المتاح وهي أيضا السجن المتحرك. ولذا صار السود يتكلمون وهم في حالة حصار وجودي مطبق، ويأتي كلامهم (لغتهم) متوتراً ومنفعلاً وعلى درجة من التحدي يبلغ حد العدوانية مع اللغة المنطوقة والمكتوبة.

إنها لغة المتسلط، وإنها سجن الافريقي ومادة عذابه الطويل. وهو ينتقم من هذه الأداة بتهشيمها وتمزيقها من الداخل، حتى لكأن اللغة الانجليزية في حالة نزيف دموي على لسان المتحدث الأسود. تتكسر قواعدها النحوية والصوتية، وتدخل فيها مفردات ومجازات لم تكن من طبعها ومن ثقافتها ومزاجها. إنها مثل الجلد الأبيض حين تعضه النحلة الافريقية. وهي تشبه جدار السجن حينما يشرع المسجونون بنبشه والحفر من تحت أساساته لكي يخترقوه ويخرجوا إلى فضاء الحرية.

4-29 يحكي برنارد شو طرفة عن أحد السود الأمريكيين الذي زار بريطانيا وسأله أحد الانجليز.

هل أنت محافظ..؟

تبسم الرجل الأسود وأجاب: سيدي كيف يمكن للسود في أمريكا أن يكونوا محافظين..؟! ما الذي نملكه في أمريكا حتى نحافظ عليه (ضد أمريكا ص96).

إن اللغة ليست لهم، ولا هي من ثقافتهم. إنها لغة المتسلط، وهي المعتقل التاريخي الذي وقعوا فيه، وما زالوا مقيدين بقيوده، ومشروطين بشروطه. ولذا فإنه من غير المتوقع أن يحافظ السود على لغة الرجل الأبيض، إذ ليس من المتوقع أن يحافظ المسجون على قيده أو أن يغذي سجانه.

لقد استثمر الأفارقة الأمريكيون لونهم الأسود ووظفوه توظيفا حضارياً متطوراً كوسيلة من وسائل التمييز والاختلاف، ومن ثم صار أداة للنضال والمطالبة بالحقوق من جهة وبالوجود المتميز من جهة ثانية. حتى لقد أصبح اللون الأسود بمثابة الرأسمال الرمزي الذي يلجأ إليه الافريقي في كل مرة تضيق به شروط الحياة البيضاء، وأثمر ذلك ثمارا

واضحة وتاريخية. كما أنهم فتكوا باللغة فتكاً لا هوادة فيه منذ أن كانت اللغة هي الرمز الباقي واللازب في جسد الإنسان الأسود، وهي القيد الذي لا فكاك منه إلا بتمزيقه. ولا أظن امبراطورية اللغة قد شهدت أو ستشهد مثل هذا الاختراق الحضاري الذي يمارسه المساجين ضد ساجنيهم، مثلما تعض النحلة جلد مغتصبها وآسرها، فتجعله ينط ويثب ألماً وعجزاً عن فعل أي شيء ضد هذه الحشرة الافريقية القاتلة. إنها تلسعه وتؤلمه، وهو الذي جلبها وحبسها هنا، ولم يعد قادراً على التخلص منها ومن لسعاتها.

30 هذا الثور المجازي

30-1 أسس أفلاطون جمهورية نظرية وضعها في كتاب، وظل هذا الكتاب وثيقة ثقافية عالمية تتسرب أفكاره الى التاريخ والواقع فتظهر في صور مختلفة وتحت مسميات متنوعة، ولكن العنصر الأكثر بروزا فيها هو أنها جمهورية للأقوياء وللسادة، أما الضعفاء والعبيد فلهم قانون يخصهم ويؤطرهم على هامش الاعتبار. بل إن أفلاطون يدعو الى ترك الضعفاء والمرضى يموتون، ودعا الى قتلهم إذا اقتضى الأمر. وفي ذلك يقول: (يجب أن يعتني الأطباء والقضاة بالمواطنين من ذوي الطبائع الجسمية أو النفسية السليمة، أما من عداهم فسندع منهم أولئك الذين اعتل جسمهم يموتون، وسيقضي المواطنون ذاتهم على أولئك الذين اعوجت نفوسهم وانحرفت طبائعهم).

هذه جمهورية تشبه جاهلية البدو عندنا الذين إذا عزموا على الرحيل من موقع الى موقع لا يكلفون أنفسهم عناء حمل المرضى الذين أزمن مرضهم ولا العجزة من كبار السن أو من به مسّ من الجنون، لقد كانوا يتركونهم مع شيء من الزاد والماء ويرحلون تاركين لهم فرصة الأمل الأخير، إما الشفاء واللحاق بالركب، وإما الراحة بالموت الهادئ وحيدين في الصحراء.

إن الحياة للقوي والسيد عند أفلاطون وعند البدو، وهي كذلك ـ أو تكاد ـ في ظل النظام السياسي الجبار في أمريكا حيث تحقق القوة والسيادة والمال كل غايات الحياة وما وراء ذلك. ويظل الضعيف والأجير (المستعبد) خارجياً وهامشياً. والخطاب الاعلامي الأمريكي المعاصر هو خطاب الرجل القوي، خطاب ذكوري في غالبه وأبيض في وجهه الأكثر فعلا ونفاذاً. وهذا هو الصوت الفاعل والمقرر، إنها فلسفة افلاطون في صورة جديدة، حيث تتم ازاحة العبيد والنساء والضعفاء وتتخصص غايات النظام للسادة والأقوياء. يحدث هذا في أهم دولة ديمقراطية معاصرة، وتزداد قوة هذا النظام وتتخصص غاياته مع مرور الزمن. حتى لقد صار الآن هو الصوت الأوحد الذي لا تسمع سواه، وذلك بسبب غياب المعارضة السياسية والاجتماعية وتلاشيها التدريجي حتى صار الوضع يبدو ــ ظاهرياً ــ وكأن المجتمع الأمريكي ـ اليوم ــ على وفاق تام مع ظروفه وسياسات حكومته ومؤسسات الدولة والمجتمع التي احتكرت الفعل واللغة.

كان في الستينيات أنواع من الانتفاضات والتجمعات الطلابية والعمالية، وكان لها صوت في الشارع والجامعة. وكانت تمثل بوادر للغة أخرى تعترض وتنتقد وتفصح عن غضبها. ولكن هذا الوجه (الآخر) المعارض ما لبث أن آل الى ضعف ووهن أفضى به اخيراً الى الانكسار والتلاشي، وتلعثم صوت اللغة الأخرى ثم سكت أخيراً سكوتا سمح للغة الأقوياء بأن تتسيد وتسيطر على كل وسائل الاتصال ومنافذ الاستقبال.

وصاحب هذا أو تسبب فيه ـ تراجع طلاب الجامعات عن الانشغال بهموم العالم، وتركز همهم على مصائرهم الذاتية وعلى مستقبلهم المعيشي، ولم يعد لديهم مجال للتفكير بغير أنفسهم وحوائجهم.

هذا الانكماش الداخلي على الذات يقابله احتفال ضخم في السياسة الخارجية، حيث صارت أمريكا ترى نفسها ـ أو هي فعلاً ـ سيدة الكون ومدبرة شؤون العالم.

وهنا نكون أمام وجهين متناقضين لأمريكا: وجه داخلي ينكمش على نفسه وتشغله ذاته عن الآخرين، ووجه آخر يطلق مطامحه الخارجية ليفرد سلطانه على العالم. وهذان وجهان لا يتطابقان، وليس في الأفق المتطور ما يشير الى امكانية تطابقهما. وإن كانت السيادة العالمية تقتضي الاهتمام الداخلي بشؤون العالم فإن هذا ليس في حسبان الأمريكي المعاصر، ويبدو أن ظروف أمريكا الاقتصادية لا تسمح بشيء من هذا.

ومن الوجه الآخر تأتي السياسة الخارجية وهي على عزيمة واصرار عنيد في مواصلة الدفع باتجاه تتويج أمريكا علىعرش الامبراطورية العالمية.

هنا تكون أمريكا بين رغبتين متضاربتين وبين تيارين متعاكسين.

هل ورطت أمريكا نفسها في هذا المأزق التاريخي..؟ ما بين الرغبات المتضاربة.

في كل التواريخ لم يحدث أن تنازلت امبراطورية عن سلطانها إلى الآخرين، وإنما يتم اجبارها واكراهها على ذلك وفي حالة أمريكا ليس هناك في الأفق الآن من هو قادر على اكراه الولايات المتحدة على التخلي عن هيمنتها العالمية. فالعدو ـ الخارجي (القوي) غير موجود ـ الآن ـ والمعارض الداخلي (القوي) ليس له من الصوت ما يكفي لادارة وجه التمثال من اتجاه خارجي الى اتجاه داخلي.

هذا مأزق تاريخي وضعت أمريكا نفسها فيه، ولن تخرج منه إلا إن واجهها هذا الخصم المرتقب داخلياً كان أم خارجياً، ليس لكي يخلص العالم من أمريكا فحسب، ولكن ليخلص أمريكا من نفسها وينقذها من سلطانها الذي يفوق قدرتها على حمل الكرة الأرضية على عاتقها.

كانوا في القديم يتصورون الكرة الأرضية محمولة على قرن ثور، وكلما اهتز الثور اهتزت الأرض بالزلازل والبراكين. وكذا هي أمريكا تلعب دور هذا الثور المجازي. ولا ريب أنها حمولة جسيمة وثقيلة. وحاملها لا بد له أن يتعب ويكل، وتخفيف الحمولة سيصبح رحمة بالحامل والمحمول.

2-30 لقد تصور كولومبوس الكرة الأرضية في صورة شاعرية (شبقية)، تصورها كرة مستديرة جداً وعلى جزء منها يوجد شيء كحلمة ثدي المرأة (تودوروف ص22). هذه هي الفردوس الأرضي الذي وجده ذلك المكتشف المحظوظ، وظلت هذه الحلمة تدر حليبها على المهاجرين البيض، ومازالت، لولا أن الثدي تحول الى رأس ثور وصارت الحلمة قرناً يحمل الأرض ويحركها مثلما يلعب الدلفين بالكرة ويلاعب بها إعجاب المتفرجين، وبذا تتراجع الحلمة إلى داخل الجسد بعد أن تيبست وتصلبت وصارت ناشفة وجافة توجع لامسها وتجرح الفم الذي يمصها، كشأن أية سلطة عالمية، والحلمة إذا تيبست لا تحرم أطفال الجيران من الحليب فحسب، ولكنها ـ أيضاً ـ لا تملك حليباً لأبنائها.

3-30 هل لهذا ساد شعار (التغيير) على كل شعار آخر في أثناء

الحملة الانتخابية الأمريكية عام 1992..؟

هل أحست أمريكا بتيبس الحلمة وتحولها الى قرن ثور..؟

إن شعار (التغيير) إذا ما تردد على لسان الساسة الأمريكيين فإنه يعني أن النظام أخذ يدرك مأزقه، ويكون السؤال اللاحق حينئذ هو:

هل بإمكان النظام أن يغير نفسه..؟!

في المقالة القادمة سيكون حديثنا عن هذا المصطلح المثير: سؤال التغيير.

* * *

31 الوعد الأبيض

31-1 في الانتخابات الأمريكية عام 1992خرج بوش بنسبة 38٪ من أصوات الناخبين، وحصل كلينتون على 43٪ وروس بيرو على 19٪. وهذا يعني أن 62٪ من الناخبين صوتوا من أجل (التغيير). وهذه نسبة تتجاوب مع الشعار الذي ظل كلينتون يردده أثناء حملته الانتخابية: التغيير، التغيير.

لقد تردد هذا الشعار في الخطابات الانتخابية وتجاوبت النتائج معه.

ولو وقفنا على هذا المصطلح وتأملنا فيه لوجدناه يرتبط دلاليا بشيئين، أولهما الوعود، وهي وعود من أجل تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للشعب الأمريكي، أي تغيير الراهن وإحلال الحلم محل الواقع. والشيء الثاني الذي يرتبط بهذا الشعار هو مرحليته الدلالية، من حيث إنه يعني تغيير جورج بوش واحلال كلينتون محله. وكأن الجديد يقول للقديم اذهب أنت لكي أكون أنا. وعند هذه النقطة ينتهي شعار التغيير، لأن صاحب هذا الشعار لا يمكن أن يغير نفسه، بعد أن احتل الموقع. وهذا يحيلنا مرة أخرى الى دلالة الوعود التي يتضمنها شعار التغيير. ويأتي السؤال الجوهري هنا حول الوعد والحلم وعلاقتهما بالواقع والممكن،

وحول فكرة التغيير وعما إذا كانت شيئاً قابلاً للتنفيذ أم لا.

وفي تاريخنا الماثل اليوم نعرف أبرز محاولات التغيير السياسي، وما آلت إليه. تلك هي بيروسترويكا جورباتشوف الذي أراد أن يغير الراهن التعس، وأن يعطي نفسه ونظامه وشعبه وجهاً جديداً من الحلم والوعد والهناءة، ولكنه انتهى بأن كسر الجرة وساح العسل في التراب، وضاع كل شيء.

تلك كانت محاولة مطلوبة انتهت نهاية تراجيدية، ولذا فإن المرء يسأل سؤالاً محيراً عما إذا كان أي نظام من الأنظمة - دكتاتورياً كان أم ديمقراطياً- يستطيع حقاً أن يغير نفسه.

إن كنا سنستعين بالتاريخ ليساعدنا على الاجابة فإن التاريخ يرفع يده معلناً أنه لم يشهد قط ولم ير أحداً أو نظاماً قد غير نفسه فعلاً. والتاريخ يعرف أن الأنظمة تخلق لنفسها سلطة نافذة على الأفراد، وتخلق لنفسها أيضاً انظمة من المناعة الداخلية والمقاومة الذاتية ضد أي تغيير جذري فيها. وهي إما أن تحمي نفسها، كما هو حاصل دائماً، أو أن تنهار وتتهشم كما حصل للاتحاد السوفياتي الذي عجز عن التعامل مع البيروسترويكا فلم يستطع استيعابها ولم يتمكن من مقاومتها فانهار النظام، ولم يحدث التغيير، وإنما حدث انقلاب نسف كل ما حوله ونقل التاريخ من حال الى حال.

وبما أن النظام ليس مؤهلاً لأن يغير نفسه، فإن ما نراه من دعوات للتغيير في أمريكا لا تعدو أن تكون وعداً جميلاً وحلماً أبيض، ما يلبث أن يذوب الجليد على حرارة الشمس ويختلط في وسخ الشوارع فيصبح الأبيض ملوثاً وعفناً يعيق السائرين ويلطخ ملابسهم، هكذا تتحول الوعود الى غصص ويتحول جمال اللغة وبلاغيات الخطابة إلى خيبة أمل والى مزيد من الإحباط والغضب.

2-31 إن قاعدة التغيير المطروحة في أمريكا ضيقة جداً ومجالها محدود ومحصور. إنها دعوة لتغيير داخلي جزئي، ولم تلتفت الى المحيط الانساني الذي تسبح فيه أمريكا. إنها محاولات لإحداث تغييرات في العضو (الجزء) مع إهمال تام للجسد الذي ينتمي إليه هذا العضو.

ولقد يكون هذا العضو هو القلب النابض أو المخ المدبر، إلا أن القلب والمخ لا يعيشان بسلامة وهناء إذا كان الجسد متهالكاً.

إن أمريكا اليوم هي قلب العالم ومخه، ولكن هذا العالم مريض وكسيح ومتهالك. ولن يتسنى إصلاح العضو وتغيير راهنه الجاف الى حلم بديع ما دام الجسد في حالة مرض عضال.

إن دعوة التغيير الامريكية دعوة داخلية شديدة الخصوصية، وتهمل المحيط العالمي الذي يحرك موجات التاريخ المعاش في كافة بقع المعمورة. وما دامت أمريكا تهمل هذا المحيط (هذا الجسد) فإن تغييرها سيظل خطاباً انتخابياً مثل الوعود/ الوعود، ويمثل تغيير المكين دون المكان، ويقوم على تغيير المصطلح دون المفهوم. ولذا فإن الذي حدث بعد انتخابات ١٩٩٢ هو أن التغيير لم يلامس سوى الوجوه السياسية، والمصطلحات الاعلامية، وظلت النظرية هي اياها. وامبراطورية اللغة لما تزل تقول وتفكروتفعل بالطريقة ذاتها والأهداف ذاتها سواء حملت توقيع جورج بوش أم بيل كلينتون.

إن العالم بمحيطه وسياقاته مثل التاريخ بتداخلاته، وكلاهما يقوم على بنية سردية ذات حبكة متلاحمة لها مدخل وعقدة ونتيجة، مثل الجملة اللغوية تتكون دلالاتها من علاقات المفردات واتحادها في سياق يتآلف أو يتضاد كي يكون له معنى دال وقيمة صوتية.

إنه وحدة متكاملة ـ من التآلف أو من الصراع ـ ولا يمكن عزل بقعة جغرافية أو تاريخية عن سائر مفردات هذه الجملة الكبيرة. لن يكون من الممكن لهذه البقعة (المفردة) المعزولة أن تعيش منسية أو ناسية محيطها.

هل يمكن عزل الموجة عن بحرها، هل يمكن تنظيف الموجة في بحر ملوث..؟

هنا نجد أمريكا الديمقراطية داخلياً والدكتاتورية خارجيا تسعى الى تنظيف (الموجة) وترك البحر، واخراج المفردة من جملتها وكأنها تكسر الدلالة وتحطم الحبكة فتخل بالنظام السردي الذي يقوم عليه العالم والتاريخ.

3-31 إذا أرادت أمريكا التغيير حقاً فلتغير من علاقاتها مع العالم من حولها وليس من الداخل فحسب. إن العالم مثل أمواج في بحر يؤثر بعضها في بعض مهما تباعدت. ولم تعد الحدود الفاصلة ممكنة الآن، وما دامت أمراض الايدز والحمى الألمانية تترحل عبر الأرض والبحار فإن الأمراض السياسية والاجتماعية والاقتصادية تترحل عابرة المسافات نفسها أيضا.

وتحصين الواحد يكون بتطعيم الجميع. ولن يكون بيد أمريكا أن تنفرد عن العالم بخيره وشره، مثلما أن العالم لن يسلم من أمريكا بخيرها وشرها.

* * *

32 في عين الآخر

32-1 إن الخطورة التي يواجهها أي كاتب يتصدى لنقد الديمقراطية هي أن يظهر وكأنه يزكي الأنظمة الدكتاتورية. وتبرز هذه الخطورة حينما يرى المرء أناساً يبتهجون لسماع أي نقد للغرب والليبرالية والديمقراطية، وترى هؤلاء يجيرون هذا النقد بوصفه خطاباً يكشف عن عيوب الديمقراطية من أجل تشويهها وتقبيحها والتنفير منها.

والحق أن المكتسب الديمقراطي وما صاحبه من مكتسب حضاري، علمي وثقافي، لهو شيء لا يمكن لأي مخلوق محب للإنسانية ولرسالة البشر في الكون، التي هي رسالة عمران لا إفساد وهي خلافة أسندها الله الى ذرية آدم، لا يمكن لمن هذا يقينه إلا أن يكبر هذا المنجز الحضاري الانساني الجليل، ومن هنا يكون النقد واجباً معرفياً وأخلاقياً منذ أن كان المنجز فعلاً انسانياً ينطوي على معرفة وعلى أخلاق.

وأمريكا التي تسنى لها في زمننا أن تكون زعيمة العالم وحلمة الثدي المدرار، ليست سوى الصفحة الكونية التي يستطيع أي قلم أن يجري على سطورها، فيقرأ ويكتب ويرى كل ما يمكن لبشر أن يراه.

إنها كتاب مفتوح، وسطور ساطعة قابلة للفهم مثلما هي قابلة لسوء

الفهم، وقابلة للمحاكاة والاحتذاء مثلما أنها مفتوحة للنقد والملاحظة.

ولقد اندمجت التجربة الأمريكية مع كل شعوب المعمورة، حتى لقد كان الناس في الستينات يشاهدون رجلاً أمريكيا يمشي لأول مرة على سطح القمر ولم يكن أحد ينظر إليه بوصفه فلاناً الأمريكي وإنما نظروا نحوه بما أنه أحد بني آدم، بوصفه بشراً، إنساناً يحقق حلماً شاعريا حلم به الشعراء والفنانون والعشاق في كل الثقافات البشرية، وساهمت أحلام هذه الثقافات بإيصال نيل آرمسترونج الى القمر، مثلما ساهمت باختراع جهاز التلفاز الذي ربط عيون الناس بقدم الرجل وحركاته خارج الجاذبية وفوق أرض المجاز والحلم والشعر.

هذه أمريكا في عيون غير الأمريكيين.

هذه واحدة من صورها ووجوهها.

ولها صور آخرى ووجوه أخر.

2-32 تساءل أوكتافيو باث مرة عن أحد الوجوه الأخرى لأمريكا وقال:

هل أمريكا تدفع العالم الى الخراب..؟ (ضد أمريكا ص 64).

وبغض النظر عن السياق الذي ورد فيه هذا التساؤل، فإن المتفرج الناقد يجد أسباباً كثيرة لمثل هذا التخوف الذي أفصح عنه هذا الروائي الأمريكي (الجنوبي).

إن معضلات الغرب الاجتماعية تحطم صورته كنموذج حضاري مؤثر. ولسوف تفرح الثقافات الشمولية التي عانت كثيرا من النموذج الغربي، وكانت ترى نفسها مهددة بالتلاشي التدريجي نتيجة لتاثير الغرب على النخب المثقفة فيها، سوف تفرح هذه الثقافات، وهي ترى الغرب - اليوم - يعاني من ويلات داخلية طاحنة. ولسوف تسعى هذه الثقافات الشمولية الى حماية نفسها من خلال إفصاحها عن الشماتة بالغرب العنصري المتأزم اقتصادياً وأخلاقياً. وبذا سيتم إظهار الغرب بوصفه نموذجا غير قابل للاحتذاء. ولذا فإن قضايا المرأة والأقليات والحريات ستكون من المسائل التي لن يعلو صوتها كثيراً لأن القدوة غير صالحة.

ولا شك أن العالم كله يتحد أمام المنجز الحضاري. مثلما اتحدوا باحتفالهم بمشي رجل من الناس على سطح القمر. لقد وحدهم الفرح وكسر حواجز القوميات والخصوصيات. وهذا فرح لا يساويه إلا الحزن

الذي خيم على العيون نفسها حينما شاهدوا أسرة تركية تحترق بنيران النازيين الجدد في ألمانيا. وحينما شاهدوا قبل ذلك رودني كنج ذلك الأسود الأعزل يضربه رجال الأمن. رجال بيضٌ يلبسون لباساً رسمياً ويطلقون هراواتهم (البيضاء) على الجسد الممدد على الأرض (السوداء). هنا حزن يعادل ذلك الفرح. لقد فرح العالم لنيل آرمسترونج ولم يشعروا أنه أبيض، وحزنوا للأتراك المحترقين ولرودني كنج لأن النار في ألمانيا والهراوات في لوس أنجليس كانت تقول إن اللون والعرق والدين هي سبب النار والهراوة.

إن منجزاً حضارياً جليلاً يشعل وحده الفرح، مثلما أن تكسر القيم والاخلاقيات تشعل الحزن.

وهنا تأتي معضلة النموذج الغربي اليوم.

إنه نموذج اختار أن يعيش برجل واحدة على أن يموت برجلين.

3-32 حينما يتمعن المرء بهذه الصورة ذات الوجهين المتناقضين، الوجه المفرح، والوجه المحزن، يعود الى ذاكرته القريبة جداً ويبحث عن شعار (النظام العالمي الجديد)، فإنه لن يستغرب إذا ما أدرك أن هذا الشعار قد اختفى الآن من الخطاب السياسي الأمريكي.

إنه شعار لا يصف حال العالم ولا يصورها، وهو شعار عاجز وقاصر. إنه عاجز لأن شاشات التلفاز وعناوين الصحف تتحدث عن عالم مكفهر مضطرب متصارع في دواخله ومع ما بين الجيران. كما أن الشاشات نفسها والصحف ذاتها تخبرنا عن دور صامت متراجع لأمريكا، ومن هنا فإن الشعار لا يستطيع مواجهة هذه الصورة التي يشاهدها كل البشر في كل ليلة ومع مطلع كل فجر. إنه شعار يعجز عن اقناع أحد بوجود عالم جديد، كما أنه شعار عاجز عن إحداث أي نظام كوني يحفظ الفواصل البشرية والاخلاقية فوق هذا الكوكب المضطرب.

هنا يأتي السؤال الذي اطلقه اوكتافيو باث ليتولد عنه سؤال حتمي سيلحق به ويتواصل معه، وهو ماذا تفعل أمريكا بالعالم..؟ وماذا تفعل بنفسها..؟

يبدو ـ إذن ـ أن أمريكا محتاجة للعالم كي ينقذها من نفسها وكي يحررها من سلطة خطابها الامبراطوري المهيمن. وبذا يكون النقد هو الوصفة الطبية التي يحتاجها هذا الجسد المتأزم.

* * *

33 نهاية الأسئلة..!

33-1 هذا رجل فوق الأربعين ودون الخمسين دخل الى الكونجرس ممثلاً احدى مدن ولاية ميناسوتا، دخل هذا المبنى الحكومي بمثالية عالية، وخرج بواقعية مرة.

عمل اثنتي عشرة سنة في الكونغرس من عام 1982وكان أول ديمقراطي يدخل هذا المبنى عن ولاية ميناسوتا منذ تسعين عاماً.

متزوج وله أربعة أطفال، وأعلن استقالته التطوعية في اغسطس 1993، قبل نهاية مدته بسبعة عشر شهراً.

خرج لأنه اكتشف أخيراً أن الكونغرس ليس مصمماً للعمل، إنه مسرح خطابة وجدال وأكاديميات. هكذا هي صورة الكونجرس في ذهنه بعد اثنتي عشرة سنة من التجربة والمحاولة.

لقد قرر الخروج والعودة ال ولايته ليربي أطفاله، كأي مواطن صادق، واكتفى من السياسة بالإياب وخيبة الأمل.

هذه صورة، ويقابلها صورة أخرى تبعث حزناً مماثلا، وهي عن (ناسا) وكالة الفضاء الأمريكية، هذه الوكالة الرائدة علمياً في اكتشافاتها

وإنجازاتها. خرج أحد رجالاتها في التلفزيون وراح يتحدث بحزن مفرط عن هذه الوكالة وقال: إن ناسا مشلولة ذهنياً ونفسياً بسبب إخفاقاتها، والخوف من الفشل صار يقيد كل حركاتها. مثلما أنها صارت تعاني من عوز مالي شديد.

إن الاخفاقات تعمل اليوم في أمريكا عملاً يفوق أعمال كل الجيوش الممكنة تاريخياً وكل الأعداء المحتملين. ولم تفد (الوعود/ الوعود) بكل بلاغياتها في معالجة مفعول أو (مفعولات) الاخفاق والخيبات المتوالية. وهذا هو الداء الذي يدخل في جسد النظام ويفتك فيه من جهة، ويجعله عاجزاً عن التغيير الجذري من جهة ثانية.

وتشهد الساحة الداخلية في أمريكا مشاهد متعاقبة من الاخفاقات الاقتصادية والتعليمية والصحية والأمنية ومعها صارت تظهر النزعات العرقية والعنصرية والثقافات الجزئية والتوترات الفردية والطائفية. ولم يعد هناك شعور قوي عند اية فئة من الفئات، والجميع يصفون أنفسهم بأنهم أصبحوا أقلية مضطهدة، حتى جماعات البيض المتطرفين، الذين صاروا يعلنون أن الفئات الاجتماعية كالسود وغيرهم قد حاصروا عليهم الفرص وضيقوها حتى صار الأبيض معتلاً في أرضه وعاطلاً عن العمل في وطنه ـ حسب دعواهم ـ وصار هؤلاء البيض يطالبون بحقوق مزعومة ويطالبون بطرد السود الى افريقيا.

إن كان الأمر قد بلغ بفئات من البيض أن تعتقد بأنها ضحية وأنها مضطهدة، فما بالك بالأقليات المنتشرة في أمريكا، وماذا ستقول عن نفسها.

هذا وضع يجعل الكل يشعرون بالاضطهاد والإحباط. وهو شعور يفضي الى شلل اجتماعي يشبه حالة (ناسا) المشلولة بإخفاقاتها. وهو وضع لا يسمح باستمرار حالة الإبداع في المجتمع، كما أنه يفضي الى تفكك داخلي يشهده الملاحظ بنشوء الثقافات الجزئية وعلو صوتها على ثقافة الجماعة.

2-33 وعلى الصفحة الأخرى من الحكاية يأتي فوكوياما ليعلن في كتابه (نهاية التاريخ) عن انتهاء الأسئلة الكبرى في الفكر السياسي، حيث تأتي الديمقراطية الليبرالية بوصفها الجواب الكامل والنهائي على هذا السؤال البشري العريق حول الحرية والعدالة ونظام الحياة، إنها قمة الهرم

البشري ولا قمة فوقها ـ وهي غاية المطاف ونهاية السؤال.

هذا ما يراه فوكوياما في مقابل ما رآه النائب الأمريكي من ميناسوتا، حيث وصف هذه القمة بأنها مسرح خطابة وجدال وأكاديميات، وأنها ليست مكاناً للعمل (للفعل).

وبينهما يأتي الشارع الأمريكي ليطرح الأسئلة تلو الأسئلة، وليقول إن العامل الاقتصادي أقوى من العامل الخطابي والفلسفي إذا ما وزنا فاعلية أي نظام (ديمقراطياً كان أم دكتاتورياً). وتبدو الديمقراطية الليبرالية بحاجة ماسة الى اقتصاد قوي يحميها ويقوي آلياتها ويرفع صوتها، وكل اهتزاز اقتصادي يوازيه وينتج عنه اهتزاز اجتماعي. هذا ما تقوله لغة الشارع ومجازاته. ولم تظهر العنصرية السافرة في شوارع الغرب (ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، وحركة البيض المتطرفين في أمريكا) إلا مع ظهور الأرقام العالية من البطالة والمرضى والمدمنين. ولم تفد في إخفائها أو تحييدها أي لغة من المعجم الديمقراطي، أو الدليل الليبرالي.

وكم صارت الديمقراطية اليوم وكأنما هي نظام تجريدي، يقول ولا يفعل، يعد ولا يحقق، يحاول إصدار القرارات وتمنعه آلياته التي هي من صنائعه ومبتكراته، تمنعه عن اتخاذ القرار.

في كثير من الأمور تكبل الديمقراطية يديها بأقلامها وتبدو وكأنها بلا إرادة وبلا قرار، وتظهر الديمقراطية وكأنما هي ضحية ديمقراطيتها، وصار وجهها العاجز أبرز من وجهها الفاعل والقادر.

هذا مأزق يقع فيه النظام نتيجة لاخفاقاته المتوالية. وستظل هذه الحالة ما دامت أمريكا تصر على زعامة العالم إصرارا دكتاتوريا قسريا وتدفع ثمن هذا الإصرار لأنها رضيت بهذا النظام المنافق الذي يكيل لنفسه بمكيال ويكيل للعالم خارجه بمكيال آخر. وهذه صفة المطففين وسمة النظام المنافق.

ولو رضيت أمريكا بما في يدها من فردوس أرضي، ولم تشغلها حكومة العالم لأعطت للتاريخ مثالاً خالداً للنظام الراقي، الذي لا ينهي أسئلة التاريخ كما يتوهم فوكوياما، ولكنه يخلق للعالم كله مزيداً من الأسئلة المبدعة والتفكير الابتكاري، بدلاً من ناسا المشلولة باخفاقاتها، وبدلاً من النائب الذي عجز عن إصلاح البيت الكبير فهرع عائدا إلى بيته الصغير ليتداركه قبل أن تسقط الحجارة على رؤوس أطفاله.

إن العالـــم بحاجـــة إلى (نظـام عالــمي جديد) يقدم نموذجا لمجتمع بشـري سـعيد، هذا ما يحتاجه الناس والتـاريخ. أما المجتمع المخفق والمتوتر فقد رأينـا منـه ومن أمثالـه مـا مـلأ صفحات التاريخ وأدبيـات كـل الثقافات وذاكرات كل الشعوب.

* * *

34 الأب الجديد

34-1 يتردد ـ اليوم ـ في أمريكا نداءات للعودة إلى نظام (العائلة)، وما تمثله العائلة من أخلاقيات وقيم. وهذه النداءات تنطوي على خطاب بكائي يبكي على زمن العائلة الذي انفرط وانفرطت معه أخلاق الناس وقيم المعاملة، انعكس ذلك على الشارع الأمريكي الذي صار مسرحاً يومياً للجريمة والشذوذ والتشرد.

وتقوم هذه النداءات على الدعوة المتكررة على ألسنة الزعماء والإعلاميين، حتى لقد كانت شعاراً انتخابياً لدى كافة المرشحين لمنصب الرئاسة عام 1992.

والسؤل الآن هو:

هل تستطيع أمريكا ـ فعلاً ـ أن تعود إلى نظام العائلة، بوصف العائلة وحدة اجتماعية فاعلة ومؤثرة ..؟!

إن الوضع الذي وصل إليه نظام الحياة بنموذجه الذي يعتمد على مفهوم (السوق) لا يسمح أبداً بعودة الحياة إلى (الوحدة العائلية).

إن الانتقال إلى نظام السوق قام فعلاً على أنقاض نظام العائلة، ولا

تسمح شروط هذا النظام الجديد بعودة ذلك القديم. ولكل من النظامين أخلاقه وقيمه وشروطه التي يختلف فيهما الواحد عن الآخر.

ولقد كان المجتمع يقوم على العائلة والأسرة، بوصفهما وحدة اقتصادية يعمل كافة الأفراد فيها في مزرعة، أو متجر أو مشروع صغير، وكان الأولاد يعتمدون على أهلهم ليس بالتربية فحسب، وإنما أيضا بالمعاش والوظيفة وتأسيس رأس المال الرمزي والمادي لهم، ومن هنا كانت الأسرة أساساً ضرورياً يتماسك من داخله بفعل الاحتياج والفائدة، ولذا يتمسك الأطراف بهذه الوحدة، ويتخلقون بأخلاقها ويسلكون ضمن سلوكياتها.

ثم جاءت البرجوازية ـ أولاً ـ لتنشأ معها دوافع الفردية والإنجاز الذاتي، وأعقب ذلك قيام (السوق) الذي أدخل أخلاقا جديدة، تقوم على المنافسة، بدلاً من التضحيات العائلية، التي صارت أمرا تقليديا ورومانسيا ومثاليات لا تزيد الرصيد ولا ترفع رأس المال. ومع المنافسة جاء الحس بضرورة التكتم والتربص واستغلال الفرص وبراعة الحيلة والاقتناص. ومعها برزت الأنانية والذاتية المطلقة. ولقد صارت براعة الحيلة تبرر أي مسلك لأنها تحقق الغاية، وتضمن الكسب. وهذه أمور لا تساعد فيها الأخلاق القديمة التي كانت تنتجها العائلة وتحرص عليها. إن غاية السوق وسببه هما الكسب في حين تقوم العائلة على التضحية. وهاتان غايتان متعارضتان.

لقد حطم السوق وحدة العائلة، وتحول أفراد هذه الوحدة إلى أجزاء يعملون لمصلحة الأب الجديد الذي هو (السوق).

34-2 يأتي الاقتصاد على أنه نظام لغوي، إنه لغة تتكلم عن الناس وباسمهم، وتنظمهم في جملة نحوية وتدل حسب معجم محدد يفسرها ويوجه طرائق فهمها واستيعابها حسب سياقاته ومجازاته الخاصة. واقتصاد السوق في مقابل اقتصاد العائلة هو نقلة نوعية من نظام لغوي إلى نظام آخر مختلف، ومعه تغيرت العلاقات والدلالات.

لقد تهشمت الوحدة المجتمعية المرموز لها بالعائلة، تكسرت الجملة، ومات الأب ـ وحل محله زوج الأم، الذي احتكر الأم والأولاد وأغراهم بالمال والجاه فأخرجهم من دفء البيت وحضن الوالدة، إلى وهج السوق ـ وبريق المال وصراخ المضاربات. ولم يعد الأولاد يتذكرون الطريق إلى البيت

القديم، لقد شغلهم عمهم / السوق وأغراهم بطاعته والانصياع إليه، وقبول أخلاقه وشروطه، فجعلوه أباً وأماً وبيتاً ومعجماً تربوياً وثقافيا ونفسياً.

تقوم لغة السوق على الشطر العقلي (النفعي) وتلغي الجانب الشخصي والإنساني في علاقات التعامل والتبادل. وتجعل مصلحة البيع والشراء هي الجوهر والغاية.

كيف إذن تتسنى العودة إلى نظام مخالف يقوم على الإنساني والشخصي، ويعتمد التضحية ..؟

لا يمكن لهذا أن يعود إلا بإلغاء الآخر، وهذا افتراض لا سبيل إلى تحققه في هذا المآل الذي آلت إليه الأنظمة الغربية.

إن ا لليبرالية الديمقراطية مرتبطة ارتباطا عضويا باقتصاديات السوق، ولما تزل أمريكا تدعو غيرها من الدول وتشترط عليهم قبول اقتصاديات السوق واعتمادها كأساس فلسفي وأساس تطبيقي.

ولقد نتج عن فلسفة السوق أن صارت الحرية قيمة نسبية يحوزها ويحظى بها من فاز ونجح في تعاملاته مع السوق / الأب الجديد، ويحرم منها وتفوت عليه كل من فاتته فرص هذا السوق. وبذا صار الناس أمام حال جديدة ـ فهم كما يلاحظ بودريلار لم يعودوا مواطنين ولم يعودوا بروليتاريا وإنما صاروا ـ فحسب ـ مستهلكين (بودريلار 6)، إنهم يستهلكون ما يحصلون عليه، ويزيد الاستهلاك إلى مزيد ومزيد من الاستهلاك واللهاث وراء ذلك .

3-34 في الغرب ومع اقتصاديات السوق هناك مؤشرات على نمو اقتصادي ضارب. ولكن هل هذا النمو المالي يؤدي إلى رفاه إنساني ...؟

ومما يلاحظ أن اقتصاديات السوق الغربي لم تعد تخلق وظائف، وإن زيادة الإنتاج (والاستهلاك) تعادلها تماماً زيادة البطالة (بودريلار).

ويصاحب هذا التعارض الخطير بين النمو من جهة والتهميش من جهة ثانية، يصاحبه ظاهرة أخرى يسميها أوكتا فيو باث بظاهرة (التلذذ). وهي ذات طبيعة تواكلية، إنها ضرب من الخضوع ليس بسبب الحكمة، وإنما بسبب الاستسلام (وهي في أحد وجوهها المتطرفة تصبح نوعا من النهم بحيث لا ترعوي عن طلب المزيد والمزيد، وفي وجهها الآخر تكون تركا

وتنازلاً وجبناً في مواجهة الألم والموت، وعلى الرغم من ممارسة الرياضة والتمرينات الصحية، فإن موقف الجماهير الغربية يشتمل على نقص في التوتر الحيوي، فالناس يعيشون حالياً أعماراً أطول لكنها سنوات جوفاء، فارغة. والتلذذية... أصبحت تلذذية الأجهزة والأشباح. إن ربط الجسم بالميكنة قد أدى إلى ميكنة اللذة، كما أن تقديس الصورة ـ مثل السينما والتلفزيون والاعلانات ـ قد أحدث نوعاً من الاختلاسات التعميمية التي حولت الأجسام إلى ظلال ـ أوكتافيوباث 28).

تحولت الأجسام ـ ومعها وحدة العائلة ـ إلى ظلال، والضوء الوحيد الساطع والمرئي هو السوق. وتصبح الدعوة في العودة إلى نظام العائلة مجرد أمنيات عاطفية، تقوم على حنين رومانسي، وتقوم على افتراض ضعيف جداً وهو ان تعود أخلاق العائلة مع الاحتفاظ بأخلاق السوق، ان يتصف الإنسان بالتضحية والإيثار والعطف من جهة، وبالانانية والذاتية والمكسب وبراعة الحيلة من جهة ثانية. وكأنما المطلوب هو ان يكون الإنسان ملاكاً وشيطاناً في الوقت ذاته.

لقد ذهبت أخلاق العائلة مع اقتصاديات العائلة وسيطرت قيم السوق مع سيطرة فلسفة السوق الاقتصادية ولغته الدعائية، وشروطه في الاستهلاك ومزيد من الاستهلاك الذي من دونه لايكون السوق.

لقد كانت فكرة الغاء نظام العائلة مع الاحتفاظ بالمشاعر المرتبطة بهذا النظام فكرة قديمة في الفلسفات الغربية، وكانت هذه دعوة أفلاطون في جمهوريته (زكريا 104). وما يتردد في امريكا اليوم ليس سوى ترجمة حديثة لمطلب قديم.

ولو تحقق لأمريكا ذلك فسوف تنجز ماعجز عنه أفلاطون ومن جاء من بعده وماأعقبه من تاريخ وثقافات. ولكن...

* * *

35 نبشركم بالحضارة

1-35 «نبشركم بالحضارة قال الغريب، وقال: أنا سيد الوقت جئت لكي أرث الارض منكم، فمروا أمامي لأحصيكم جثة جثة فوق سطح البحيرة، أبشركم بالحضارة قال:

لتحيا الاناجيل، قال،

فمروا . . .

فإن هنوداً يموتون خير

لسيدنا في العلى من هنود يعيشون،

. . . . . .

لكم عالم ولنا عالم

يقول الغريب كلاماً غريباً

ويحفر في الأرض بئراً

ليدفن فيها السماء،

يقول الغريب كلاماً غريبا»

(محمود درويش، احد عشر كوكباً 44).

2-35 لا تكتمل قراءة امريكا إلا بالوقوف على اهم واخطر فصل من فصول الكتاب الأمريكي، وهو فصل الهنود الحمر. هذا الفصل يمثل الذاكرة والأصل والمبتدأ لكل ما هو أمريكي، ولكل ما هو حضاري أو اخلاقي في التجربة الأمريكية وفي سجلات الرجل الأبيض هذا الذي جاء مبشراً بالحضارة البيضاء، وبادر إلى تقديم هداياه ووصاياه للسكان المحليين، وكانت هذه الهدايا بمثابة (عشر بلايا) كما يقول تودوروف (فتح امريكا ص148). أولها الجدري وآخرها العبودية، هذا هو الثمن الذي دفعه الرجل الأبيض مقابل أخذه للأرض الهندية الحمراء، ومقابل امتلاكه للجسد الأحمر والوجه الأخضر، حتى ضاقت الأرض بأهلها في حين اتسعت للمهاجرين من كافة أصقاع الغرب الأوروبي.

درس في الحضارة وفي الاخلاق لايقوى عليه سوى رجل أبيض.

3-35 يبدو من أول وهلة أن كولومبوس لم يجد أرضاً بكراً فحسب، ولكنه عثر على شعب بكر أيضاً، وكانت الارض من نصيب البلاط الاسباني المجيد، وكذلك هي الحال مع الشعب الذي صار غنيمة سهلة بيد الفاتح الأبيض. ولكي يسهل تقسيم الغنيمة فإن كولومبوس يوزع الهنود إلى أربع فئات هي:

أ) هنود وثنيون يأكلون لحم البشر.

ب) هنود مسالمون قابلون للخضوع والاستسلام

ج) هنود ميالون للحرب.

د) هنود أبرياء.

ويختلف التعامل مع هذه الفئات الأربع، إذ تجري معاقبة المحاربين بشراسة تبلغ حد إفنائهم إفناء تاماً. ويتم تحويل الأبرياء إلى مسيحيين (تودوروف 53).

أما ما عدا هؤلاء فإنهم يتحولون إلى عبيد يتم شحنهم بالسفن إلى اسبانيا، ليكونوا تحت تصرف البلاط، وقد يجد كولومبوس في هؤلاء الهنود فائدة مادية إذ يقدمهم ثمناً لشاحني السفن الذين يجلبون المؤونة

من أوروبا وليس لدى كولومبوس من المال ما يكفي لسدادهم، وفي ذلك تقول بعض مذكرات الرحلة: (من الممكن سداد الثمن للشاحنين على هيئة عبيد من آكلي لحوم البشر، وهم بشر متوحشون، لكنهم أقوياء البنيان ويتميزون بالجسارة وبحسن الفهم، ونعتقد أنه من الممكن إذا ما خلصناهم من لا (لا إنسانيتهم) أن يصبحوا أفضل أصناف العبيد ـ تودوروف 53).

تلك ـ إذن مهمة ـ كولومبوس الحضارية والأخلاقية وذلك بأن يسعى إلى تخليص الهنود من وحشيتهم وإدخالهم إلى حظيرة الإنسانية، فإذا ما دخلوها يمن عليهم بنعمته الكبرى ويجعلهم عبيداً من افضل أصناف العبيد.

نحن أمام حضارتين إحداهما وثنية متوحشة تأكل لحوم الأموات من البشر، وتعيش على أرض فسيحة خضراء غناء تاكل وتشرب بعيدا عن اوروبا وحضارتها. أما الثانية فإنها مسيحية بيضاء ذات رسالة حضارية مقدسة، تحب الذهب والنساء والعبيد. وتقابلت هاتان الحضارتان على ارض تتسع لهما معاً وعلى مضمار أخلاقي يتسع لاخلاقياتهما كلتيهما. واتسع صدر الأحمر لهؤلاء الطارئين على ارضه، ولكن الأبيض ضاق ذرعا بالمتوحش الأحمر، وبما أن التوحش والوثنية وأكل لحم الاموات من الخطايا التي لايغفرها الأبيض فإنه راح يعالجها حسب الطريقة التي سمحت له حضارته ومعجم أخلاقه بها. ولعل حادثة مجزرة (كاوناو) في (كوبا) تدلنا على شيء من تعامل هاتين الحضارتين مع بعضهما، وذلك أن الجنود الاسبان توقفوا يوماً لتناول الإفطار في مجرى أحد الانهار الجافة، وكان المجرى يغص بأحجار الصوان وبالغدران المائية الصغيرة، وبدا للإسبان إحساس ورغبة في شحذ سيوفهم بأحجار الصوان، وكان الهنود قد تجمعوا يتفرجون على هؤلاء الرجال البيض وعلى الخيول التي لم يروا حيوانات مثلها من قبل.

وها هي الحضارة الوثنية المتوحشة تتفرج مسالمة ومنبهرة على ضيوفها الطارئين.

وبنمو حماس الاسبان ذوي الحضارة المقدسة المباركة ويطربون لصليل السيوف المشحوذة، وتعن لأحدهم فكرة بيضاء طريفة ويرغب في تجريب سيفه، وتعم الفكرة سائر الجنود فيشرعون في تمزيق احشاء الرجال والنساء من الهنود ويقطعون أعضاءهم ولا يسلم من ذلك أحد حتى الأطفال والشيوخ الذين يتساقطون قطعاً قطعا من أجل تجريب

السيوف الناصعة في بياضها وفي تحضرها، وتمَّ تقطيع أجساد كل الهنود الواقفين على ضفاف الوادي وفي ثوان معدودات لا يبقى هندي واحد على قيد الحياة حتى سال الدم وتدفق النهر الجاف بالسائل الأحمر (تودوروف 151).

35-4 هنا يعود مصطلح (المتوحش) ومصطلح (المتحضر) ليكشف سلطان اللغة على البشر، وعلى قدرة العبارات على تشكيل العقل الانساني وتوجيه خياراته، ومادام الهنود متوحشين فإن أجسادهم وأعراضهم وأرضهم تصبح حقاً طبيعياً للرجل المتحضر صاحب الرسالة المقدسة والسيف الأبيض، وهذه هي حقوق الحضارة مقابل المصير المحتوم للوحشي.

هكذا هي البشارة بالحضارة، هذه اللغة التي لم يتعود عليها الهنود الحمر الذين جربوا كل مفردات معجمهم اللغوي الفطري، ومن ذلك ان زعيم قبائل الأزتيك في المكسيك حاول مخاطبة الإسبان باللغة التي ظن أنها تردهم بسلام، فأرسل إليهم هدايا سخية من الذهب ومن النساء لكي يرضوا بهذه النعم عن محاربة الهنود واحتلال ديارهم (ص96).

ولكن هذه الهدايا زادت الرجال البيض إغراء وأشعلت رغبات الطمع في نفوسهم. ومن هنا فإن كل موقف سلمي يبدو من الهنود يرد عليه الاسبان بمزيد من العدوانية. ويظل التقسيم الاخلاقي قائما بين الثقافتين فهؤلاء البيض متحضرون وأولئك الهنود وحوش. والأرض لن تكون لأصحابها ولكنها ستؤول إلى الغازي الذي يظل متحضراً وذا رسالة ربانية مقدسة، وهي قداسة لها من الطهارة ما يحميها من دَنَس الدماء المتدفقة في الأنهار الجافة. إنها دماء قوم متوحشين.

* * *

36 الكائن السينمائي

1-36 كان الهنود الحمر في ذهني عبارة عن كائنات سينمائية، وكانوا أشكالاً خيالية مسرحية يرمزون إلى ذاكرة مأساوية عن الظلم وهضم الحقوق، ترتبط حسياً بشاشة السينما، ومعنوياً بالضمير الإنساني المتعذب دوماً في أسئلته عن معنى التحضر والتطور في العمران البشري، الذي يقوم على التدمير المتعمد لكل ما هو فطري وطبيعي سواء من البشر الفطريين أو الأرض وبيئتها الفطرية.

وظلت هذه الصورة حية في نفسي على ما فيها من بعد تخييلي حتى شهر يوليو 1992حينما تواجهت وجهاً لوجه ولأول مرة مع ثلاثة هنود حمر في مدينة سياتل بولاية واشنطن، كانوا رجلاً وفتاتين، وكانوا بالنسبة لي بمثابة الخيال اذا ما تجسد في وجود حسي، أو كأن شاشة السينما تحولت إلى ميدان ينبض بالبشر والحياة والواقعية. وكانوا مثل انفجار مفاجئ في الذاكرة ترى فيه حزنك وجراحك وكل أحاسيس الإنسانية وتجسدات الضمير. كنت أرقب وجوههم وحركاتهم يتكلمون باللغة الانجليزية ويلبسون لباس الحضارة (البيضاء)، وتبدو صورهم وكأنهم قلوب لا يغلفها جسد، أو ربما يكونون كلمات طارت من صفحة كتاب وتعلقت في الهواء، فهي تطير وتتحرك وتعبر، فتقترب من عينيك تارة وتهرب منك بعد ذلك

لتعود مرة اخرى، وأنت تسبح وراءها ببصرك وتسأل نفسك: هل هذه ذاكرتي طارت من رأسي وصارت تلاعب نظراتي وتمتحن فهمي وإدراكي..؟.. ولولا الحياء لمددت يدي ألامس البشر الذين أمامي لأطمئن على جسديتهم وعلى حضورهم.

رحت اسأل وانا خجل وخائف من كل سؤال خشية أن اتعدى حدود الأدب مع ذاكرة مارس البشر ضدها كل موبقات الحضارة، وكل تواريخ العنف.

قال لي: لقد منعوني من أن أتحدث لغتي في المدرسة، وكان المدرس الأبيض يأمرني بغسل فمي أمام الطلاب إذا ما غلطت وتفوهت بكلمة من لغتي الهندية.

ما الذي يخيف الرجل الابيض من لغة الهنود الحمر...؟ هل لأنها تكشف له عن ذاكرة لا يريد أن يراها. ذاكرة عن اسلافه البيض الأشاوس وعن تاريخهم مع الهنود؟ يحاول الابيض نسيان ماضيه وماضي حضارتهم على ارض أمريكا الهندية، وهذه اللغة تفتح له صفحات ذلك التاريخ، ولذا لابد من غسلها وتنظيف معابر الحناجر منها. إغسلوا اللغة وإغسلوا التاريخ واغسلوا الذاكرة... إن استطعتم إلى ذلك سبيلا.

لقد لبس الهندي ثياب البيض وتكلم لغتهم، ولبس فوق ذلك حزن التاريخ كله، وغرس في رأسه ذاكرة لا تغطيها الثياب ولا كل لغات البيض.

2-36 كان الهنود الثلاثة يحكون وكنت استمع لامثل ما يستمع البشر للبشر، ولكن مثل ما تسمع حلماً ينطق أو ذاكرة تصرخ، وكنت وكانوا في موج من الحديث والحزن والخوف مما يفعله الإنسان بالانسان تماما كأنك ترى قتيلاً ينتفض من تحت دمائه ويلتفت إليك ليقول لك ما فعل به القاتل. وما كنت انت قاتلاً ولا شاهداً، ولكنك تعلم علم اليقين أن ما تقوله الضحية صحيح وأن المقتول قد سال دمه فعلاً، وبكل تأكيد فإن المقتول لم يقتل قاتله.

كان هذا يدور بيننا عبر الكلمات السابحة في فضاء الغرفة في حضرة الهنود الحمر وفي حضرة ثقافتهم وتاريخهم ودمائهم.

ولم أشعر قط ان بجانبي رجلاً ابيض، إنه مرافقي الذي سايرني ثلاثين يوماً بلياليها ولم يكن اللون شيئاً يذكر في علاقتي معه. غير أنه ذكرني ونبهني إلى لونه الأبيض حينما استاذن منا للخروج وسأل عن طريق

دورة المياه، وغاب ساعة ثم عاد ليستأذن مرة أخرى بحجة أنه يرغب في تدخين سيجارة في الممر الخارجي. احسست عند ذلك أن مرافقي رجل أبيض، وحمدت له لباقة تصرفه إذ رفع عنا الستارة البيضاء وتركنا في حرية ملونة بألوان جلودنا الطبيعية.

وعلمت وقتها أن اللون الأبيض سلطان يحضر اذا شاء ويغيب اذا شاء، وكل فعل من أفعاله هو كياسة تحسب له ويشكر عليها. اليس هو سليل الحضارة والمدنية...؟ بينما نحن في عداد الهوامش واللواحق. شكرا لمرافقي الذي لم يشعرني ببياضه إلا لكي يغيب عن الجلسة ويرفع عنا الشهادة البيضاء.

3-36 راح مضيفي الهندي يحكي لي حكاية حضرها مع جده. حيث ذبح الجد (دباً) ليسد به جوع العائلة. وكان الجد يتحدث مع (الدب) وهو يذكيه (يذبحه)، وهو يسلخه ويقطعه ويقول له: انت أخونا وشقيقنا فنحن وأنت من أم واحدة، هي أمنا الأرض. ولذا فإننا لن نهينك وسوف نكرمك ونكرم لحمك الطيب، ولولا الجوع ما ذبحناك، ولسوف تدخل في أجساد أولادنا وتصبح جزءاً منها تتحرك وتتنفس معها. إننا نحبك ونتألم لك، ولسوف نحافظ على أولادك ونصونهم، أنت أيها الدب الطيب الحبيب يا ابن أمنا الأرض، ويا أخانا المختلط فينا والداخل في أجسامنا. لسنا نقتلك ولكننا نأكلك لكي تحيا فينا وتقتل جوعنا.

يقول هذا ويؤكد لي أن الهندي لا يعتدي ولايجور لأنه يرى لكل شيء روحاً، ولذا حافظ على البيئة سليمة نقية ولم ينتهك حرمة الأرض وكرامتها، وكل كائن إنما هو أخ وأخت.

اما الأبيض.. فانظر فعله بالأرض وكيف انتهك عرضها واغتصب عذريتها لقد فعل بالأرض مثلما فعل بالهنود الحمر. لقد جعل البيئة ترطن بلغة المال والسلاح، وكانت من قبل لا تعرف سوى لغة العصافير وقبلات الغيوم وتراشقات المطر.

قال ذلك وأنا أودعه بيد تعرف ملمس المكلوم وتعرف طريقها إلى الجراح المخفية تحت الجلد وتحت الملابس الحضارية.

ودعت يده يدي وخرجت كي يستلمني مرافقي الذي صرت اعرف أنه ابيض، وصرت أرى أن مواعيدنا القادمة هي مواعيد بيضاء، وكل شيء في هذا الكون هو أخ واخت ـ كما قال صاحبي الهندي، وأمضيت باقي فترتي

مع أخي الرجل الأبيض. إلى أن حانت عودتي وتوادعنا في مطار نيويورك يوم 1992/8/11 فذهبت عائداً نحو الشرق، وذهب مرافقي الأبيض نحو غرب الغرب، وانتهت المصافحة لتبدأ الذاكرة.

* * *

المراجـــع

1 ـ العربيـــة

ابـن حزم: طـوق الحمامـة. تحقيـق الطـاهـر أحمد مكـي . دار المعـارف ــ القـاهـرة 1977.

ابـن منقـذ، اسـامة بـن منقـذ: كتاب الاعتبـار، حـرره فيليب حتي، الـدار المتحدة للنشر، بيروت، طبعة 1981.

أفلاطون: دراســة لجمهوريــة أفلاطـون بقلم فـؤاد زكريـا . دار الكتــاب العربي. القاهـرة 1967.

إيكو/ امـبرتوايكو: اســم الوردة. ت أحمـد الصميعي. دار الـتركي للنشــر. تونس 1991.

باث/ أوكتافيوباث: زمن الغيوم. ت حامد أبو أحمد. دار الحرية. القاهـرة 1989.

بريخت/ برتولد بريخت: قصائد. ت أحمد حسان دار الفارابي. بيروت 1986.

تودوروف: فتح أمريكا، مسألة الآخر. ت بشير السباعي. سينا للنشـر. القاهـرة 1992.

جارودي: في سبيل ارتقاء المرأة. دار الآداب بيروت 1982.

الخطيبي/ عبد الكريم الخطيبي: النقد المزدوج. دار العودة. بيروت د.ت

درويش/ محمود درويش: احد عشر كوكباً. دار توبقال. الدار البيضاء 1992.

دنقل/ امل دنقل: الأعمال الكاملة. مكتبة مدبولي. القاهرة. د. ت

سحارة والظاهر: ضد أمريكا. المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1989.

الغذامي/ عبد الله محمد الغذامي: الخطيئة والتكفير. دار سعاد الصباح. القاهرة / الكويت 1993.

القزويني: آثار البلاد واخبار العباد. بيروت 1960.

كلينتون/ بيل كلينتون وآل جور: رؤية لتغيير أمريكا، ترجمة ونشر مركز الأهرام. مؤسسة الأهرام. القاهرة 1992.

ماركيز: كيف تكتب رواية. ت صالح علماني. الأهالي دمشق 1988.

ميشو/ هنري ميشو: مختارات من شعره. ت: سامي مهدي. دار المأمون بغداد 1989.

* * *

2 ـ الانجليزية

Baudrillard, J: Selected writings, (ed. by M. Poster). Stanford university Press. Stanford. California 1988.

Fukuyama, F: The End of History and the last Man. Penguin Books. London 1992.

Lorca, F.G: The Selected Poems, ed by Francisco Lorca and D. Allen, A new Directions Paperbooks. New York 1961.

Said, Edward W: Oreintalism, Pantheon, New York 1978.

Said, Edward W: Culture and Imperialism Chatto and Windus, London 1993.

Chomsky, Noam, Necessary Illusions, South End Press, Boston, MA 1989.

Chomsky, Noam, Media Control, the Spectacular achievements of Propaganda, Open Magazine Pamphlet Series # 10, Westfield, NJ 1992.

المحتــويات

* * *

كتب أخرى للمؤلف

1- **الخطيئة والتكفير**. من البنيوية الى التشريحية ـ دار سعاد الصباح (الطبعة الثالثة). القاهرة/ الكويت 1993.

2 ـ **تشريح النص** ـ مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة. دار الطليعة. بيروت 1987.

3 ـ **الصوت القديم الجديد** ـ بحث في الجذور لموسيقى الشعر الحديث. دار الأرض. الطبعة الثانية الرياض 1991.

4 ـ **الموقف من الحداثة**. الرياض (الطبعة الثانية) 1992.

5 ـ **الكتابة ضد الكتابة**. دار الآداب. بيروت 1991.

6 ـ **ثقافة الاسئلة**. مقالات في النقد والنظرية. دار سعاد الصباح (الطبعة الثانية) 1993.

7ـ **القصيدة والنص المضاد**. المركز الثقافي العربي. بيروت/ الدار البيضاء 1994.

8 ـ **المشاكلة والاختلاف** (بحث في الشبيه المختلف ـ المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء 1994.

9 ـ **المرأة واللغة**. المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء 1996.



المكتبة الفكرية

- **الحداثـة** — مالكولم برادبري
  تر : مؤيد فوزي حسن
- **أطياف ماركس** (طبقة ثانية) — جاك ديريدا
  تر : د. منذر عياشي
- **نشأة الدين** — علي سامي النشار
- **طـه حسيـن** " العقل والدين " — د. عبد الرزاق عيد
- **الحمراء** " أثر الحضارة العربية على الأندلس " — واشنطن إيرفيغ
  تر : عبد الكريم ناصيف د. هاني يحيى نصري
- **رحلة إلى جمهورية النظرية** " مقاربات لقراءة وجه أمريكا الثقافي " — د. عبد الله محمد الغذامي
- **الإصلاح الديني** " عند مارتن لوثر وجمال الدين الأفغاني " — د. فريال حسن خليفة



المكتبة النقدية

- النقد الادبي في القرن العشرين — جان إيف تادييه — تر : د. منذر عياشي
- الاسلوبية — بيير جيرو — تر : د. منذر عياشي
- الادب والدلالة — ت.تودوروف — تر:د. محمد نديم خشفة
- تأصيل النص — لوسيان غولد مان — تر:د.محمد نديم خشفة
- اللسانيات والدلالة • الكلمة • — د. منذر عياشي
- بحوث في القراءة والتلقي — تر:د. محمد خير البقاعي
- دراسات في النص والتناصية — تر:د. محمد خير البقاعي
- ارتحالات المعنى — إبراهيم محمود
- التأويل والتأويل المفرط — أمبرتو إكو — تر: ناصر الحلواني

- قال المعنى — نضال الصالح
- فتحي غانم " السلطة والدين " — حسين عيد
- مسائل البناء "مقاربة في القصة العربية " — أحمد المعلم

مركز الانماء الحضاري CEC
CENTRE-ESSOR ET CIVILISATION
للدراسات والترجمة والنشر

حلب - سورية ص.ب 6333 ⌘ B.P: 6333 - ALEP SYRIE

هاتف : 233412 ⌘ فاكس : 236182 -21 00963

ع- 1998/3/493

رحلة إلى جمهورية النظرية: مقاربات لقراءة وجه أمريكا الثقافي / تأليف عبد الله محمد الغذامي . ـ ط ٢ . ـ حلب: مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٨ . ـ ١٦٨ ص ؛ ٢٤ سم.

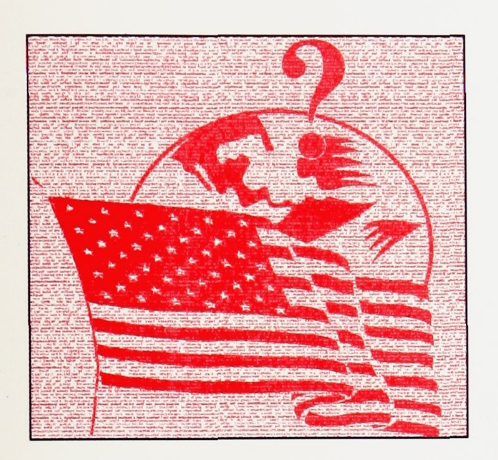
١- ٩٧٣ غ ذ ا ر　　　٢- ٣٠٦,٤٠٩٧٣ غ ذ ا ر

٣- العنوان　　　٤- الغذامي

مكتبة الأسد

رحلة إلى جمهورية النظرية

مقاربات لقراءة وجه أمريكا الثقافي



السيدة أمريكا

إن كان بريخت يقول: أفضل شيء في أمريكا هو اننا نفهمها.

فإنني أقول: إن أفضل شيء في امريكا هو اننا نستطيع ان نسيء فهمها، ولا نخاف.

واننا نستطيع أن ننتقدها، ولا نخاف.

ونستطيع أن ننسب إليها كل شرور العالم، ولا نخاف.

ونستطيع ان نطالبها بكل دواعي الضمير والاخلاق والمسؤولية التاريخية والحضارية، ولا نخاف.

أفضل ما في أمريكا واجمل ما فيها أنها طعام شهي لكل من اراد آن يأكل لحم أخيه، من دون آن يكرهه الناس من حوله ومن امامه.

كل الشعراء وكل المبدعين والمفكرين واصحاب الاقلام في بلاد العالم جربوا الكتابة عن آمريكا، وقالوا فيها وعنها كل ما خطر على بالهم. سواء عرفوها عياناً أم تصوروها ذهنياً. وحينما كتب برتولد بريخت عن أمريكا دون ان يراها وسأله السائلون عن ذلك أجاب بكلمته هذه:

افضل شيء في أمريكا هو أننا نفهمها.

